أمثال في الميزان

مجموعة من الأمثال الشعبية في ميزان الشرع

أحمد ذياب عطايا

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الثانية

١٤٣٤ هـ/ ٢٠١٢ م

تنسيق وتصميم الغلاف

إبراهيم غانم (أبو عبد الرحمن)

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، لا يزيد في ملكه حَمْدُ الحامدين، ولا ينقصه جحود الجاحدين، ولا تنفعه طاعة من أطاع، ولا تَضُره معصية من عصى، ولا يُغنيه شُكر من شَكَر، ولا يُفْقِرُه كُفر من كَفَر، ﴿ **وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيم** ﴾.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ إمام المرسلين وخاتم النبيين، تَرَكَنا على بيضاء نقية لا يزيغ عنها إلا هالك.

وبعد: فان الله تبارك وتعالى يقول: ﴿ **مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيد** ﴾ (سورة ق ٨١). ويقول تعالى: ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا** ﴾(سورة الأحزاب ٧٠). ورسولنا ﷺ يقول: **(المسلم من سَلِمَ المسلمونَ من لسانه ويده)**[1].

ويقول ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: **(وهل يُكَبُّ الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم؟)**[2]. وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول: "**لو استقمتم لاستقامت ألسنتكم**"، وكان العرب قديماً يقولون: **إن المرء بأصغريه قلبه ولسانه.**

إن الآفات اللسانية كثيرة وخطيرة، وان هذه العضلة الصغيرة كافية أن تُدخل صاحبها الجنة أو النار بما تحصده.

ومن الآفات اللسانية الكذب، والغيبة، والنميمة، وشهادة الزور، وكثرة الحلف بالباطل وغير ذلك كثير، والمثلُ السائر هو من حصاد اللسان، قد يكون خيراً وقد يكون شراً، وقد كان يدور في ذهني منذ أمدٍ أن أجمع بعضاً من الأمثال الشعبية، وأُوَزنها بميزان الشرع ما استطعت لذلك سبيلاً، وقد حال دون ذلك أشغال وأعمال، وما تشاؤون إلا أن يشاء الله، إلى أن وَجَدْتُ فرصةً مناسبةً وفراغاً جزئياً فشرعتُ في جمع هذه الأمثال متوكلاً على الله وحده.

ولستُ في صدد جمع الأمثال كنوع من "الفلكلور" الشعبي، فلقد سبق وأن جُمِعَ

(١) متفق عليه.

(٢) رواه الترمذي. انظر حديث رقم: ٥١٣٦ في صحيح الجامع.

منها الكثير، إنما القصد تناول بعض الأمثال الشعبية التي يتناقلها الناس فيما بينهم خاصة تلك التي تدعو إلى حرام، وتشكل خطراً على العقائد أو تُشَوّه وجه الإسلام الأبيض الناصع، والتي قد لا يفطن الناس لها.

ولم أتعرض للأمثال التي تحض على الخير وفعله كقولهم "**نِيّالَك يا فاعل الخير**"[٣] وقولهم: "**نيّال من قدر وعَفَى**"، أو الأمثال التي تُرشِد إلى شيءٍ معين كمكان أو زمان، أو تُحَدد وقتاً، أو ما لها علاقة تعليمية، كقولهم: "**أيام الزيت أصبحت أمسيت**" كناية عن أن أيام موسم الزيتون وعصره أيام قصيرة، أو قولهم: "**في تشرين بِيغَبّر العنب والتين**" دليل على واقع محسوب، وكناية عن انتهاء موسم العنب والتين في ذلك الشهر من السنة، هذه الأمثال وشبيهاتها لم أتعرض لها، إنما تعرضتُ لبعض الأمثال التي رأيتُ فيها مخالفةً شرعيةً من وجهة معينة.

وكنت أتمنى أن يتفرغ أحدهم إلى مثل هذه المواضيع فيتصدى لها في كتاب كبير مُبَوَّب حسب الموضوعات، أو الأحرف الهجائية، وما زال المجال مفتوحاً.

وقد كان تَعَرُّضي للمثل الشعبي انطلاقاً من إيماني بان العمل للإسلام وتخليص الناس من مفاهيم خاطئة ملوثة بالمعاصي والمنكرات الظاهرة والباطنة، وتنقية الأفكار من رجس الشرك، ومناهَضَة أي فكرة دخيلة على الإسلام من شأنها تشويه صورة هذا الدين العظيم أو تعكير صفوه، هو واجب شرعي على الإنسان كل حسب موقعه وإمكاناته التي وهبها الله له.

وقبل أن ادخل إلى مدى تأثير المثل على الناس، أَوَدُّ التعريج على تعريف المثل وبيان معناه: **قال المُبرد**: المثل مأخوذ من المثال، وهو قول سائر يُشَبّه حال الثاني بالأول، والأصل فيه التشبيه، فقولهم "**مَثل بين يديه**" أي انتصب، ومعناه أشبه بالصورة المنتصبة، فالمثل جُعِل كالعلم للتشبيه بحال الأول، كقول كعب بن زهير:-

كانت مواعيد عُرقوب لها مثلاْ وما مـواعيدها إلا الأبـاطيل

فمواعيد عُرقوب عَلَمٌ لكل مالا يصح من المواعيد.

(٣) نِيّال: بالنون المكسورة والياء المشددة، بمعنى طوبى.

وكلمة "**مَثَل**" جاءت في القرآن الكريم على عدة معاني متقاربه منها:

١-السنن :كما في قوله تعالى: ﴿**وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمۖ**﴾ (البقرة ٢١٤).

٢-العبرة: كقوله تعالى: ﴿**فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ**﴾ (الزخرف ٥٦).

٣- الصّفة: كما في قوله تعالى ﴿ **ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ** ﴾ (الفتح ٢٩).

ولا شك أن أرقى الأمثال من كل الوجوه هي أمثلة القرآن الكريم، فإنها - بالنسبة لباقي الأمثال - تعلو ولا يُعلى عليها، ثم يتبعها ما نطق به الرسول ﷺ على سبيل التمثيل.

أما باقي الأمثال فإنها تُوضَع في ميزان الشرع والعقل والنقد، ومن حق كل إنسان أن يفحصها ويعرف صحيحها من سقيمها.

وفي المثل تجتمع أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحُسن التشبيه، وجَودة الكناية، فهو نهاية البلاغة.

وكون الكلام مَثَلاً، أوضح للمنطق وأمتع للسمع، وأوسع لِتَشَعّب الحديث ولهذا كان للمثل التأثير الكبير على الأفراد والمجتمع، وأصبح ركيزة هامة، ومصدراً من أهم المصادر التي تؤثر على فكر الإنسان وبالتالي على سلوكه.

وتأثير المثل نابع كما قلنا من بساطته وبلاغته، وسهولة حفظه ورشاقة لفظه، حتى لو كان عاميا، فانه لا يعدم هذه الصفات.

وينظر الناس إلى المثل على انه حصيلة تجارب مرت، بل زبدة هذه التجارب، والأمثال بمجموعها تكون صورة صادقة عن نظرة المجتمع للحياة، ومفهومه لهذه الدنيا، والآخرة والكون بشكل عام.

وعندما يكون للمثل هذا الأثر الساحر على الأذن، فانه من البدهي أن يكون له مركزه القوى بين الكلام، يؤدي إلى احترامه إن لم يكن تقديسه عند البعض، ومن الطبيعي والحال هذه أن يكون المثل عند معظم الناس قانونا أو دستوراً يحكم العادات والتقاليد، ولا سبيل إلى تخطيه، بل العناية به، بالحفظ وضبط الألفاظ وصلت عند الكثير في عصر الدخن الذي نعيش، أكثر مما وصلت إليه العناية

بضبط ألفاظ الحديث الشريف... ولا نبالغ إن قلنا أن بعض الأمثال وَصَلَت عند بعض الناس إلى درجة التواتر.

والمثل عندما يكون مفهوماً لدى الناس، لا بد أن يؤثر هذا المفهوم في السلوك العام وقد يؤدي المثل الذي وقر في القلب والعقل إلى كسر الحاجز النفسي، أو الرادع الإيماني، أو بتعبير آخر تحدير "النفس اللوامة" وما يسميه البعض " الضمير" عند ارتكاب مُحَرّم، فَقَول المثل: "**اسرق النذل و لا تشحده**" فيه كَسْرٌ لحاجز التردد عند سرقة النّذل، ولكل شخص تفسير خاص لكلمة "النَّذل" وبذلك يكون من سرق نذلاً كأنه قام بواجب شرعي يقتضي الشكر عليه.

وليس معنى ذلك الدعوة إلى نبذ الأمثال، فذلك أمر غير وارد، بل مستحيل أصلاً، لكن المغالاة وعدم التمييز قد يؤدي بنا إلى الحرام.

والأصل أن تكون الآية والحديث، قاعدة للسلوك، ولا بأس بان تكون الحكمة الصالحة والمثل الجيد، ذلك أن في أمثالنا الشعبية الغث والسمين، والصحيح والسقيم، والخطأ والصواب، ولهذا كانت المبادرة إلى تنقية الأمثال وبيان ما يصلح مما لا يصلح، ضربا من ضروب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد يكون المثل في ظاهر ألفاظه غير مخالف شرعاً، لكن المتعارف عليه أن هذا المثل لا يضرب إلا في مناسبة معينة هو الذي يحكم به عليه، فقول المثل: "**ما حَدّا راح ورجع**" أي لم يسبق أن مات احدٌ ورَجَع" وهذا قول حق، لكنه يُضْرَب للرد على من يُرَغِّب في الحياة الآخرة ويُرَهّب من عذاب القبر وعذاب جهنم، فقوله هذا قد يصل إلى درجة الكُفر أعاذنا الله جميعا منه؛ وجَعَلَنا من الذين يستمعون القول الحسن والنصيحة فيتبعونها، وجعلنا من الذين يضبطون ألسنتهم عن قول الحرام، وجعلنا من الذين يذبون عن هذا الإسلام العظيم.

هذا ما أردتُ قوله، مع رجاء أن يكون هذا العمل في ميزان حسناتي، وان ينتفع به الناس، وحسبي الله ونعم الوكيل.

أحمد ذياب عطايا

"صَدَق اللي قال ..."

هذا مثل الأمثال - إن صح التعبير- أو قُل: مَثَل يسبِقُ كُل مَثَل، ومثل يوطئ لكل مَثَل مهما كان هذا المثل، يُقال بينَ يدي كل مَثَل، وهو في حَدّ ذاته تمهيد نَفْسِيّ لقبول المثل لدى السامع، إذ إنّ كلمة "**صَدَق**" هي ما ابتدأ بها المثل، والجملة خبرية، كأنها أمرٌ مُسَلَّمٌ به.

وما دام الأمر قد سبق بكلام كثير كان لا بد من أن تكون الزبدة، والنصيحة الأخيرة بشكل موجز حاسم، لكن من الضروري أن يُمَهّد لهذه النصيحة الأخيرة بعبارة تُزيل كل شَكّ محتمل بقي في صدر السامع، فَيُقال: صَدَق اللي قال، ثم يأتي بالمثل.

وَرَغِبْتُ أن يكون "مثل الأمثال" في بداية كلامنا ، لِنَرى هل "صدق اللي قال" في كل ما قاله فعلاً؟، أم أنه كان كذّاباً منافقاً أحياناً، وغاشاً مُضِلاً أحياناً أخرى؟... هل أخلص "الذي صَدَق فقال"النصيحة" أم انه أوردَ سامعه موارد الهلاك؟

* هل صدق اللي قال: "**لَقّح الباطل بالباطل تايظهر الحق**". والله تعالى يقول: ﴿**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ** ﴾؟

* هل صدق اللي قال" "**فخار يكسّر بعضه**". والله تعالى يقول: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ**﴾؟

* هل صدق اللي قال: " **ما بكتب وصل إلا قليل الأصل**". والله تعالى يقول: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ** ﴾؟

* هل صدق اللي قال: "**القرايب عقارب**". والرسول ﷺ يقول: (**لا يدخل الجنة قاطع رحم**)[٤]؟.

* هل "صدق اللي قال: "**بوس الأيادي ضحك عاللحى**"؟. والله تعالى يقول: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ**﴾؟.

* هل صدق اللي قال: "**بعد نفسك خُصّ صديقك**". والله تعالى يقول: ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ** ﴾؟.

(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٦٤)، وأبو داود(١٦٩٦)، وهو صحيح.

* هل صدق اللي قال: " **كل داء خبيث إلّه دواء نجس**". والرسول ﷺ يقول: (**إن الله لم يجعل في حرامٍ شفاء**)[٥].

* هل صدق اللي قال: " **حَيا الرجال يورث الفقر**". والرسول ﷺ يقول: (**الحياء من الإيمان**)[٦]؟

* هل صدق اللي قال: "**خالِف تُعرف**". والله تعالى يقول ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا**﴾.

* هل صدق اللي قال: "**صباح الخير يا جاري انت في حالك وأنا في حالي**". والرسول ﷺ يقول: (**ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت انه سيورثه**)[٧].

* هل صدق اللي قال: "**معاهم معاهم عليهم عليهم**". والله تعالى يقول: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**﴾؟.

* هل صدق اللي قال: "**يا رُوح ما بعدك رُوح**". والرسول ﷺ يقول: (**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد**)[٨]؟

* هل صدق اللي قال: "**معاك قرش تساوي قرش**"؟ والله تعالى يقول: ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ**﴾؟

* هل صدق اللي قال: "**اللي يرُشَّك بالمية رُشَّه بالدم**". والله تعالى يقول: ﴿**وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾؟

* هل صدق اللي قال: "**أنا واخويا على ابن عمي وأنا وابن عمي على الغريب**". والرسول ﷺ يقول: (**ليس منا من دعا إلى عصبية**)[٩]؟

* هل صدق اللي قال : "**اللي بيريحك من اليتيم طلاق أمه**". والله تعالى يقول: ﴿**فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ**﴾؟

* هل صدق اللي قال: "**مين يقدر يقول للغولة عينك حمرا**"؟ والرسول ﷺ

(٥) أخرج الطبراني، انظر السلسلة الصحيحة (١٦٣٣).

(٦) متفق عليه، انظر مشكاة المصابيح ٥٠٧٠.

(٧) متفق عليه، انظر مشكاة المصابيح ٤٩٦٤.

(٨) أخرجه مُسلم، انظر حديث رقم: ٦٦٦٧ في صحيح الجامع.

(٩) أخرجه أبو داود، وأخرجه مسلم بنحوه، انظر حديث رقم: ٦٢٢٧ في صحيح الجامع.

يقول: (**إذا خشيت أمتي أن تقول للظالم: يا ظالم، فقد تُوُدِّعَ منها**)[١٠]؟

* هل صدق اللي قال: "**امشي في جنازة ولا تمشي في جوازه**". والرسول ﷺ يقول: (**مَن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته**)[١١]؟

* هل "صدق اللي قال: "**جزا المعروف ضرب كفوف**"؟ والله تعالى يقول: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ ويقول تعالى: ﴿**هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ**﴾؟.

* وهل "صدق اللي قال: "**إذا دخلت الملائكة خرجت الشياطين**"؟ والرسول ﷺ يقول: (**بحسب امرئ من الإثم أن يحقر أخاه المسلم**)[١٢]؟.

* هل "صدق اللي قال: "**يا طولك طول النخلة وعقلك عقل السخلة**"؟ والله تعالى يقول: ﴿ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾؟

* هل صدق اللي قال: "**امشِ الحيط الحيط وقول يا رب الستر**"؟ والرسول ﷺ قال: (**لا يَمْنَعَنَّ أحدكم رهبة الناس أن يقول بحق إذا رآه**)[١٣]؟.

* هل صدق اللي قال: "**يا مزكي حالك ببكي**"؟ والله تعالى يقول: ﴿**وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ** ﴾؟

* هل صدق اللي قال: "**العب وحدك تيجي راضي**"؟ والرسول ﷺ يقول: (**إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية**)[١٤]؟.

* هل صدق اللي قال: "**ما ظل في العمر شيء يستاهل التوبة**"؟ والله تعالى يقول: ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾.

وبعد: قائل هذه الأمثلة وغيرها الكثير مما لا يكاد يُحصر، هل يعرف الله تعالى أم استحوذ عليه الشيطان فأنساه ذكر ربه؟ هل استقام إيمانٍ قائلُ مثل هذه الأمثال حتى يستقيم قلبه فيستقيم لسانه؟ هل "صدق اللي قال" أم كان من الكاذبين؟

---

(١٠) أخرجه أحمد وغيره من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب.

(١١) متفق عليه.

(١٢) أخرجه الترمذي، عن أبي هريرة ﷺ، انظر حديث رقم: ٦٧٠٦ في صحيح الجامع.

(١٣) أخرجه الترمذي وغيره، انظر صحيح الترغيب والترهيب رقم ٣.

(١٤) أخرجه أحمد وأبو داود، انظر حديث رقم: ٥٧٠١ في صحيح الجامع.

هذا قول البشر.. وذاك قول الله ورسوله... وصدق الله ورسوله وكذب الذين يخالفون عن أمره.

فهل بعد هذا " صدق اللي قال" في كل ما قال؟

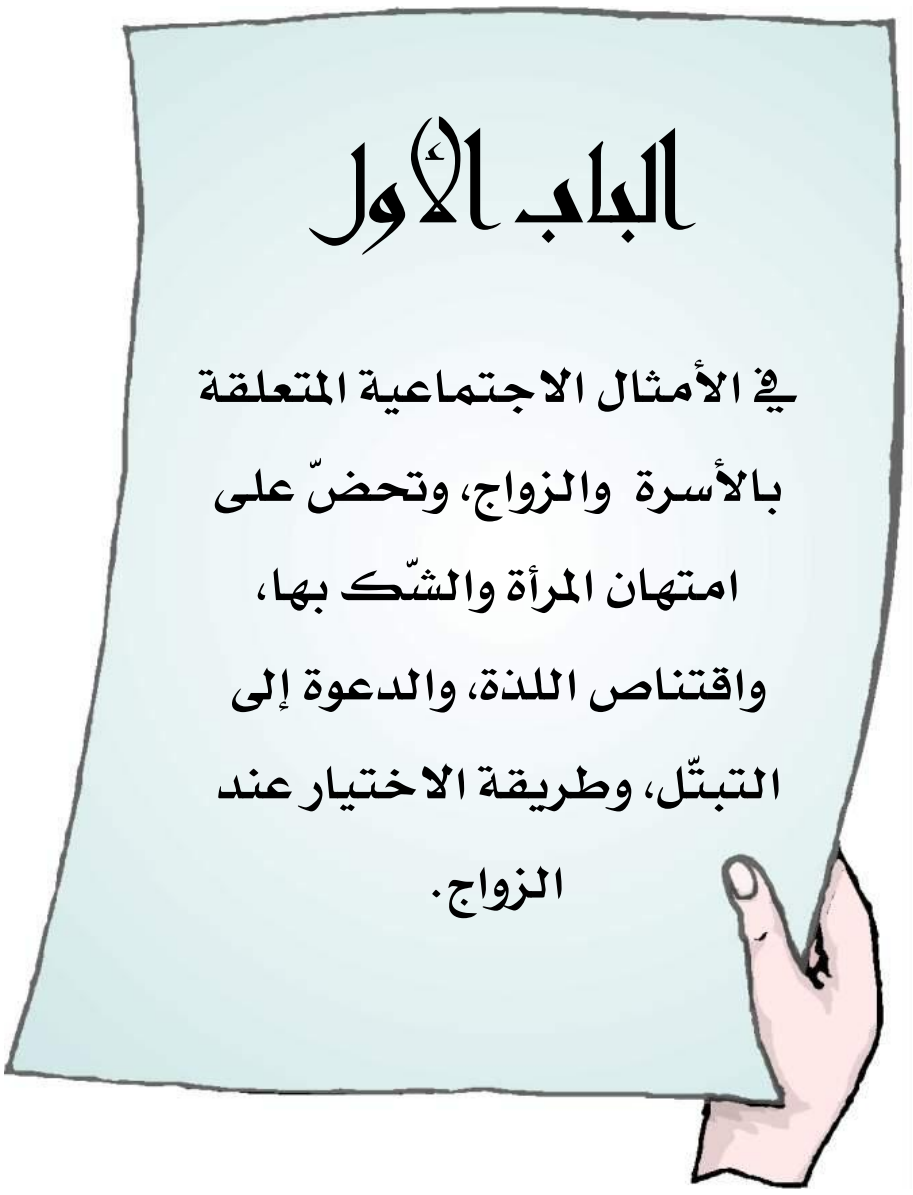

الباب الأول

في الأمثال الاجتماعية المتعلقة بالأسرة والزواج، وتحضّ على امتهان المرأة والشّك بها، واقتناص اللذة، والدعوة إلى التبتّل، وطريقة الاختيار عند الزواج.

"اللي مهرها تيعة تيعة، طلاقها كش كش"

بعد أن عَمَّر سبعين سنة، وعايَنَ مِن الأمور الخشنة والحسنة، وبلى الأصحاب، واختبر الأعداء والأحباب، ورأى من الدنيا وأهلها، وقَلَّبَ وعرها وسهلها، فكر وقرر: أنه قبل أن تزول القدم، ويستعمل المأذون القلم، ويمضي على ورقة العقد الحكم، إذا أردتَ لابنتك السرور والحبور، فاعمد إلى رفع المهور، وبذا تجنبها الطلاق وسائر الشرور.

"اللي مهرها تيعة تيعة، طلاقها كش كش"

و"**تِيعة تيعة**" و"**كِشّ كِشّ**" توكيد لفظي يُقال للدجاجة، وهو دليل على سهولة جلبها ويُسر طردها، وهكذا كل امرأة، طلاقها سهل، إذا كان مهرها مُيَسّر "**اللي بيجوزه أبوه بيهون عليه الطلاق**". وقد قيل:

مهر الفتاة إذا غلا صون لها من أن يَبت عشيرها تطليقها

لهذا فقبل أن "تقع الفأس في الرأس" ولأجل أن "**تصبح المرأة عشرتها دوم، اجعل سياقها كوم**"، وليبع العريس "**اللي فوقه واللي تحته**" من أجل أن يقترن بِرَبّة الجمال والدلال وليُقَيَّد بالسلاسل المالية من مهر وتوابعه، ويُكَبّل بقيود "السياق" المتقدم والمتأخر، فذلك أحرى أن يؤدم بينهما، ومن يخطب الحسناء لا يغله المهر، و "يا علي بيع الجمل، وبيع النعجة والحمل".

هذا ما يجب أن يفهمه كل أب قبل أن يوافق على زواج ابنته، فقد يندم حيث لا ينفع الندم "**جوزت بنتي لأرتاح من بلاها، إجت وجابت أربعة وراها**". والمهر المرتفع أمان من الطلاق، ومصدر عز وفخر للمرأة، فبادر أيها الأب الكيّس الفطن إلى "**تشليح**" العريس من كل درهم في جيبه، قبل أن تنتقل الكُرَة إلى ملعب العريس، فهي فرصة إن لم تستغلها أصبحت غصة عليك وعلى ابنتك، "**واللي ما بيطلع مع العروس بيلحقهاش**". وعندئذ فقط تستطيع تأمين ابنتك ضد غوائل الفقر، وضد الطلاق، فلا

تأخذك بالعريس شفقة ولا رحمة، ولا يجب أن تهزمك عاطفتك نحو شاب رغب في بناء مستقبله مع ابنتك، فقد قيل:

ومن اخذ البلاد بغير حرب يَهون عليه تسليم البلاد

وهناك فائدة أخرى غير مباشرة، قد لا يفطن لها الولي الذكي، مفادها أن من تحمل هذا العبء الكبير لأجل استكمال نصف دينه، لا يمكن أن يفكر -مجرد تفكير- في إعادة الكَرَّة والزواج من ثانية، فارتفاع المهر مَصْلٌ واقٍ، ومضاد حيوي ضد زواج صهرك على ابنتك، وبذلك تُأَمّن ابنتك من **الضرائر** "**والضرة مرة ولو كانت ذان جرة**"، وتستطيع أن تنام مرتاح البال قرير العين، فقد سَتَرْتَ ابنتك "**والعرض ما بنحمى بالسيف**" وأمنتها من الطلاق، وحفظتها من الضرة "**إذا بِدَّك تجيب غراب البين، تجوز ثنتين**".

وَقَد عَلَّمَنا من الصادق المصدوقﷺ -ومن واقع الحال- أن المرأة الفاضلة تفوق قيمتها اللآليء، ولكن ما كان ارتفاع مهر المرأة وانخفاضه له علاقة بقيمة المرأة، فلا تناسب طردي في هذه المسألة، والذي فهمناه أن المهر ليس ثمناً للمرأة، فالمرأة كمخلوق لا تقدر بالمال، إذا كان الله قد سَخَّرَ لها وللرجل ما في الأرض جميعاً. وإني لَعَلى يقين أن المرأة التي قال الرسول ﷺ لخاطبها (**التمس ولو خاتماً من حديد**)[١٥] كانت أفضل بكثير، وأكثر بركة من امرأة كان مهرها مما خف حمله وغلا ثمنه، فالبركة في خفة المهر ويُسره وقلة مؤونته، قال ﷺ (**إن خير النساء أيسرهن صداقا**)[١٦]، وقد زَوَّجَ سعيد بن المسيب ابنته لتلميذه على درهيمن، ورَفَضَ تزويجها لابن الخليفة عبد الملك بن مروان.

ومَن زَوَّجَ ابنته على مهر مرتفع ، فقد سَنَّ سُنَّة سيئة في مجتمعه، حُكِيَ أن رجلاً زَوَّجَ ابنته على مهر غال، وجهزها بجهاز كبير، وأسرف ببذخ على حفلات العرس، ولما جاء الناس يباركون للعريس ولأبي الفتاة، قام "أبو بكر بن اللباد" فقال للأب:

(١٥) رواه الإمام البخاري في الصحيح.

(١٦) ابن حبان في صحيحه وفي رواية الطبراني "خيرهن ايسرهن صداقا.

" لا أَخْلَفَ الله عليك بخير، فقد أكمدتَ جارك، وأعضلتَ ابنته (أي تسببتَ في كسادها) وخالفت سنة رسول الله ﷺ".

روى مسلم في صحيحه أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله، إني تزوجت امرأة من الأنصار، فقال ﷺ: (**على كم تزوجتها؟**) قال: على أربع أواق (من الفضة) فقال ﷺ: (**على أربع أواق!! كأنما تنحتون الفضة من عرض هذا الجبل، ما عندنا ما نعطيك**). والشاهد استنكار الرسول ﷺ هذا المهر المرتفع، مع أن "الأواق" الأربع تساوي في عُرفنا اليوم "٢٨" غراماً.

إن المهر إذا كان "**تيعة تيعة**" يحمي المجتمع من الفساد، والشباب من الانحلال، والفتيات من السقوط، والمرأة الصالحة عون على شطر الدين ولو كان مهرها "**تيعة تيعة**"، فقد روى الحاكم والطبراني في الأوسط أنه ﷺ قال: (**من رزقه الله امرأة صالحة، فقد أعانه على شطر دينه، فليتق الله في النصف الآخر**) (١٧).

وبالخُلُق والدين تحمي المرأة نفسها من الطلاق، فإذا كان القرين على خُلُق ودين أيضاً فانه يعلم أنه ليس بهذه البساطة أن يقول لزوجته "**كش كش**" ولو كان مهرها "**تيعة تيعة**"..

ليس الفتاة بمهرها وغلوه كلا، ولا ارتفاع في الصداق
لكنها بعفافها وبطهـــرها وصلاحها، تحمى من الطلاق

(١٧) وروى الحديث أيضاً الطبراني في الأوسط والبيهقي عن أنس ﷺ مرفوعاً، وَذَكَرَه الألباني في السلسلة الضعيفة وفي ضعيف الجامع الصغير برقم: ٥٥٩٩، ولكن قد ثبت بلفظ: (**إذا تزوج العبد فقد استكمل نصف الدين فليتق الله في النصف الباقي**)، قال الشيخ الألباني رحمه الله: حسن لغيره، انظر صحيح الترغيب والترهيب (١٩١٦).

يا ميخذ القرد على ماله ، بيروح المال وبيظل القرد على حاله

كلامٌ جميل في ظاهره، فالمال ليس هو المطلب الأساسي في الزواج، لكن يبدو أن المثل يحض على الظفر بذات الجمال، لاختياره القرد، والقرد في غاية القباحة، ولو سألنا صاحب المثل أو المجتمع المؤمن بهذا المثل أن يدلنا كنصيحة كيف نختار الزوجة، لَقال: "**خذ المليح واستريح**"، أي مليح الوجه وليس مليح الصفات والأخلاق، بدليل المثل الآخر: "خذها بيضة ولو مجنونة"، أو قال: "**يا ميخذ البيض يا مْقَضّي الزمان فرحان، ويا ميخذ السود يا مْقَضّي الزمان حزين**"، أو قال: "**خُذ الحلو واقعد قباله، وان جعت شاهد جماله**".

وهكذا نتزوج الحسناء بغض النظر عن سائر أحوالها الأخرى، نتمتع بمشاهده الطلعة البهية والوجه الحسن، فقد خلق في أحسن تقويم، فارجع البصر هل ترى من فطور؟ لا بد للزوجة أو المرأة أن تكون (لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث، مسلمة لا شِيَة فيها تسر الناظرين)، والحذر الحذر من الزواج من السود قبيحات الوجوه، فالحزن مُقترِنٌ بهن، وملازم لقرينهن، ولهذا درءاً للحزن والأسى، والهم والغم، وطلباً للفرحة والسرور والبهجة والحبور "**خذ المليح واستريح**" فإنها قُطِعَت من الشمس أو صِيغَت من القمر، وكما قيل:

تغار الشمس إن حسرت قناعـــا ... وَيُـخْجِلُ ضوؤها القمر المبينا
ففي الماضي حكت بلقيس حسنـا ... وفي أيامنا " صوفيـــا لورينـا
أو ميرفت أمينا..... ... أو شيرينا.....

ولا بأس أن تكون الآمرة الناهية، والحاكمة المطلقة، فجمالها يشفع لها، تقول: أريدُ ولا أريد، فما يكون من الزوج البليد، إلا أن يقول: أمركِ فأنتِ المالكةُ ونحن العبيد، تقول لزوجها بلسان حالها: سبحان من أعطاك ما لم تستحق!! فَمثلِي في النساء قليل، ومثلك في الرجال كثير، فلا يملك المسكين المأسور بجمالها، إلا أن يُؤَمّن

على قولها، ويرى أنه أوتي من الدنيا حسنتها، فما له فداء لها، وكل غال ورخيص ملك لها، وحقها عليه، أكبر من حق أمه وأبيه، وفصيلته التي تؤويه، وما علم الواحد منهما، ما قال رب السموات والأرض، ومالك الطول والعرض، والقبض والخفض ﴿ **الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ** ﴾(سورة النساء ٣٤) .

تَزَوَّج الجميلة ولو لم تملأ بك عينها، ولا تقنع بك نفسها، ولو تَعَرّضت، أو تطلعت لسواك، تزوجها ولو لم تكن ذات دين، فجمالها خير شافع، ويكفيك أن تقضي الزمان "فرحان" أو "سكران" لا فرق، و"**إن عشقت اعشق قمر**".

هذه الأمثلة لا يَعْتَدّ بها إلا غافل أحمق، فتفضيل الجميل أو الجميلة دون سائر الاعتبارات وتحكيم غريزة النوع وإرضاء شهوة التملك عند اختيار الزوجة، هو من ضروب السفه والطيش.

من قال أن زوج الحسناء يعيش في سعادةٍ وفرحٍ مُنَعَّما مترفاً؟ هل كشف باطن أمره وحقيقة حاله وخبايا معيشته من وراء الجدران؟ لو فعل ذلك لوقف في أغلب الأحيان على ما يوجب الأسى والأسف، ويدعو للرحمة والشفقة، والأغلب انه كلما كان المظهر زاهياً زاهراً كان باطنه مقتما مظلما.

وقد بَيَّن الله الطريق الصحيح لاختيار الزوجة ﴿**وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ**﴾(سورة البقرة ٢٢١)، والرسول ﷺ يقول: (**ولأمة خرماء سوداء ذات دين أفضل**)[١٨] ولأن الدنيا متاع، فان خير متاعها الزوجة الصالحة سواء كانت جميلة أو غير ذلك.

وعندما قال الرسول ﷺ بعد استعراض نظرة الرجال في المناكح: (**فاظفر بذات الدين**)[١٩] بَيَّن أن الظفر والفوز الحقيقي هو الاقتران بصاحبة الخلق والدين،

(١٨) رواه ابن ماجة في السنن، انظر حديث رقم: ٦٢١٦ في ضعيف الجامع.

(١٩) رواه الشيخان في صحيحهما.

ويبدو لي من قوله ﷺ "فاظفر" دعوة إلى عدم تضييع فرصة وجود فتاة من هذا النوع، والظفر بها فوز.

ولا نعني قطعاً الإعراض عن الجَمال، فان من أخذت حظها من الجمال والدين فبها ونعمت، وتكون أغضّ للبصر وأحصنُ للفرج واجمع لشتات الفكر، وانظر إلى قوله ﷺ في وصف الزوجة الصالحة: **(إذا نظر إليها سَرَّته)**[٢٠] دليل على الجمال، لاجتماع النظر والسرور.

لكن الشقاء الذي ما بعده شقاء هو اختيار الزوجة لمالها أو لجمالها فقط ضارباً عرض الحائط اعتبار الأخلاق والدين، ولا دليل نقلي ولا عقلي، على صحة أن: "من تزوج البيضاء قضى زمانه فرحان"، ولم نَرَ ذلك حتى في الخرافات والأساطير، ولم نسمع، أن النظر إلى جمال الوجوه يُشْبِعُ الحاجة العضوية للطعام، وكم من فتاة ذات جمال، لكن لا تصلح زوجة ولا يستعان بها على خير.

والأمثال السالفة لا تصلح قاعدة، ولا تستوي بأيّ وجه من الوجوه مع الشرع أو حتى مع الواقع.

ليس الجمال بأثواب تُزَيننا إن الجمال جمال الخلق والدين

تجوزنا تاننستر، ساق الله على أيام الفضيحة

خَلَقَ الله تعالى طبيعة المخلوقات على نظام الزوجية ﴿**وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾(الذاريات ٤٩) ، وفي قصة الطوفان، تلقى نوح من ربه أن يأخذ في السفينة من كل زوجين اثنين ﴿**حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ**﴾(هود ٤٠)، فالزوجية سُنَّة كونية واسعة المدى، شملت الكائنات

(٢٠) عن أبي هريرة ﷺ قال : قيل لرسول الله ﷺ: أي النساء خير؟ قال: **(التي تَسُرّه إذا نظر وتطيعه إذا أمر ولا تخالفه في نفسها ومالها بما يكره)** أخرجه النسائي، وصححه الألباني: حسن صحيح.

الأرضية، وهكذا يظل الحنين الفطري ينازع كل فرد من أفراد الزوجين، إلى اللقاء بالآخر.

والزواج آية من آيات الله تعالى ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً**﴾(الروم/٢١)، وأجمل وأعمق وصف للزوجية هو قوله تعالى: ﴿**هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ**﴾(البقرة/١٨٧)، فالإنسان بلا لباسٍ عارٍ، وهو بلا زوجة عارٍ أيضاً عن أشياء كثيرة، واللباس يستر ويقي الحر والقَرّ وزينة وراحة، والزوج لزوجته والزوجة لزوجها سِتر (**فإنَّه أغض للبصر وأحصن للفرج**)[٢١]، وهو وقاية من الفتن، وزينة للإنسان وراحة نفسية وجسدية.

ولا شك أن الله وضع في الإنسان غريزة النوع للحفاظ على بقاء النسل، وبذلك تكمل حاجة الرجل إلى المرأة وحاجة المرأة للرجل، وانسجاماً مع هذه الفطرة، شَجَّعَ الاسلام الزواج، وحث الشباب عليه (**يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج**)[٢٢]، ونهى عن التبتل (**فمن رغب عن سنتي فليس مني**)[٢٣].

والحض على العزوبية، إعراض عن سنة المصطفى ﷺ، ومناف للفطرة، وكأن هذا المثل وغيره من أشباهه يزرع في النفوس التمرد ضد قيود الزوجية والتحرر والانعتاق من ربقة هذا الرباط المقَدّس، تفكّر في قولهم: "تجوزنا تا ننستر، ساق الله على أيام الفضيحة" وقولهم: "العزوبية ولا الجيزة الردية".

فالزواج في نظر المثل لم يُحَقق الغاية منه، وبذلك يحن ويستذكر بشوق، ويتحسر على أيام العزوبية أيام الفضيحة، والله وحده هو العالم بنية قائل هذا المثل، وغايته من الزواج، حتى فَشِلَ وَحَنَّ إلى أيام الفضيحة، وقد تتوقع أن يكون هدفه أي شيء ما خلا انه تزوج "لينستر" فعلاً.

فربما يتزوج امرأة لِعِزّها، أو حسبها، أو مالها، والنتجية الحتمية أنّه لن يظفر بالسعادة، ولن "ينستر" حاله بهذا الزواج يقيناً على حديث الرسول ﷺ: (**مَن تزوج**

(٢١) متفق عليه، من حديث عبد الله بن مسعود وعلقمة رضي الله عنهما مرفوعاً.

(٢٢) صَدْرُ الحديث السابق.

(٢٣) متفق عليه من حديث أنس بن مالك ﷺ.

امرأة لعزها لم يزده الله إلا ذلا، ومن تزوجها لمالها لم يزده الله إلا فقراً، ومن تزوجها لحسبها لم يزده الله إلا دناءة...)[٢٤] هؤلاء هم الذين لا يجدون سعادة في زواجهم لأنهم لم يحققوا أهدافهم التي أملوها، فَيُسرِعون إلى ذم الزواج ومدح أيام الفضائح، (**... ومن تزوج امرأة لم يرد بها إلا أن يغض بصره، ويحصن فرجه، او يصل رحمه، بارك الله له فيها، وبارك لها فيه**). و يَعتبر مثل هذا لا الزواج مصيبة ووقوع فأس في رأس، ولا يعتبر الزواج محطة أو نافذة، يطل منها بشوق إلى أيام العزوبية وأيام الفضيحة ، يتحسر عليها، ويتمنى رجوعها، ولا يتمنى الحرام بالحلال، ولا يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.

أنا من موقن بحديث الرسول ﷺ أن من تزوج امرأة ليغض بصره ويحصن فرجه، أي لمجرد "السترة" فان الله يبارك زواجه، أما الذي يتحسر على أيام الفضيحة فالحقيقة انه لم يتزوج "لينستر". كما يزعم، اللّٰهُمَّ إلا إذا كان مصطلح "السترة" عنده يعني أهدافاً ذاتيه غير الإحصان ذاته.

إن من يتزوج "لينستر" مستنيرا ببوارق الأحاديث الشريفة في اختيار الزوجة بنية الإحصان، لن يكون زواجُه رديئاً، وما يباركه الله لا يمكن أن يكون فيه شر فكيف تكون "الجيزة الردية" إلا إذا كان المتزوج في نفسه أهواء يبغي تحقيقها، فاختار زوجته طبقاً لمواصفات خاصة تمليها عليه غرائزه، لمالها، أو لحسبها، أو لجمالها أما ذات الدين فلم تخطر له على بال.

ثم بعد اختياره غير الموفق، ووقوع "الفاس في الراس" يُوَلوِل، ويصيح ويندب حظه "الجيزة الردية، وأيام الفضيحة" والسبب واضح لهذا الضنك.. ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا**﴾(سورة طه/ ١٤٤).

إذا كانت لك امرأة حَصان فأنت مبارك بين الفريق
فإن جَمَعْتَ إلى الإحصان عقلاً فبورك مثمر الغصن الوريق

(٢٤) عزاه المنذري في الترغيب والترهيب للطبراني في الأوسط، وذكره الألباني في السلسلة الضعيفة برقم ١٠٥٥.

ابن العم يِنَزّل عن الفرس

ضرباً بِكُلّ الاعتبارات الخلقية، وتجاهلاً لعواطف الخير، يُعطى ابن العَمّ حقاً عُرفياً، بفسخ عقد نكاح ابنة عمه، وإبطال زواجها ولو ليلة زفافها، ليحوزها لنفسه.

ولابن العم حق يعطيه له المجتمع، بإجبار ابنة عمه على الزواج منه كُرها، وقضية " بن العم" منتشرة بيننا، حتى أن الأب لا يجرؤ على الموافقة على زواج ابنته إلا بعد اخذ مشورة أعمامها أو أبناء عمومتها، أو بالأحرى عرضها عليهم، فإن تَكَرَّموا ورغبوا عنها، ولفظوها، وعزفوا عن نكاحها، التقطها "الغريب"، والويل للأب الذي لا يستشير أبناء العمومة، حينئذ لا بد أن يثأروا لكرامتهم التي هُدِرَت بتجاهلهم، فيستعملون حق النقض، ويبطلون هذا الزواج بأي شكل كان، فان لم يستطيعوا، فان العُرس لن يمر على خير- وهذا أضعف الإيمان.

ولا شك أن العصبية الجاهلية القبلية ورابطة الدم والقرابة، والغيرة التي ليست في محلها هي التي دعت المجتمع إلى إعطاء ابن العم هذا الحق.

يقول المجتمع: لا يخطب أحدكم حتى يأخذ الإذن من ابن العم، فان زَهَد فيها فَبِها ونعمت، وإلا فلا، والمجتمع يقول: إذا أتاكم ابن العم فانكحوه، ولو أدى إلى إنزال ابنة عمه عن ظهر الفرس، وهكذا يعطي ابن العم حق التدخل في شؤون ابنة عمه، بل أعطاه الولاية عليها فهي على أية حال "من دمه ولحمه"، وبهذه المفاهيم لا يرى المجتمع ابن العم أجنبياً، بل يُجَوّزون له الدخول على ابنة عمه، والخلوة معها، ومرافقتها في السفر ونحوه كأنه من المحارم والرسول ﷺ يقول: (**الحمو الموت**)[٢٥].

فابن العم ولو لم يكن كفؤاً لابنة عمه، فهو أحقّ بها، وله حق الأولوية في نكاحها ولو كان فاسقاً ماجناً مستهتراً، هو أولاً، ولو كانت لا تُحبه ولا تُطيق قُربه، بل يجب عليها أن تلغي عواطفها أمام ابن عمها، أو تنتظر حكم الإفراج عنها من بين شفتيه.

---

(٢٥) متفق عليه من حديث عقبة بن عامر ﷺ.

عن عائشة رضي الله عنها قالت، جاءت فتاة فقالت: إن أبي زَوَّجَني ابن أخيه ليرفع بي خسيسته، وأنا كارهة، فَقُلْتُ لها: "اجلسي حتى يأتي رسول الله ﷺ"، فجاء فأخبرته، فأرسل إلى أبيها، فَجَعَلَ الأمر إليها[٢٦] فها هو رسول الله ﷺ يَرُدّ نكاح ابن العم لكراهيتها له، فأين هذا من مفاهيمنا الجاهلية؟؟.

وابن العم مثله مثل سائر الأجانب ليس له أدنى حق في ابنة عمه، فإذا خُطِبَت لا يجوز له أن يعترض حتى على مجرد الخطبة، قال ﷺ: (**لا يبع أحدكم على بيع بعض، ولا يخطب بعضكم على خطبة بعض**)[٢٧] فضلاً عن أن يعترض على النكاح وَ "يُنَزّل عن الفرس".

وكان رسول الله ﷺ يقول: (**إذا أتاكم من ترضون خُلُقه ودينه فزوجوه، إن لا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض**)[٢٨]، فهل نترك حديث رسول الله ﷺ، فنرفض من هو على خُلُق، لمجرد أن ابن العم له رغبة ولو كان يتصف بصفات لا تقبل حتى عند بنات إبليس؟ إن هذا يشبه الاختطاف، وقال الشافعي إمام هذا الحديث: كأن الظاهر من الحديث أن من خطب امرأة؛ لم يكن لأحد أن يخطبها حتى يأذن الخاطب أو يدع"، وهذا هو الموافق لشرع الإسلام ذلك أن للخاطب حقاً يجب أن يُصان رعاية للعلاقات البشرية بين الناس.

طُلِب مني مَرّة أن أتوسط لدى أُناس رَغِبَ شاب في خطبة ابنتهم، فلما فاتحتُ الولي في الأمر، قال: نحن لا نُزَوج بناتنا للأغراب، فقُلتُ: ليس في عائلتكم شباب في عُمر الزواج؟! فقال: نعرضها على الصغير والكبير ولو أدى الأمر إلى أن نُزوجها على ضُرّة، على أن نُزَوّجها خارج العائلة.

والنتيجة، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "يا بني السائب إنكم قد أضويتم، فانكحوا في النزائع"، يعني أصبح نَسلكم ضعيفاً، لأن زوجاتكم مِنْكُم، فتزوجوا من غير عشيرتكم.

---

(٢٦) أخرجه النسائي وابن ماجة، وضَعّفه الألباني في ضعيف النسائي ٣٢٦٩.

(٢٧) أخرجه الستة إلا البخاري، انظر حديث رقم: ٧٢٤٢ في صحيح الجامع.

(٢٨) أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي هُريرة رضي الله عنه، انظر حديث رقم: ٢٧٠ في صحيح الجامع.

وقد شَجّع الإسلام على التغريب وحث على الزواج بالغريبات -إن صَحَّت التسمية- إذا كُنّ ذوات دين، فالتغريب له منافع عديدة كثيرة منها: تعارف الأسر وترابط الجماعات، قال تعالى: ﴿**يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا**﴾(الحجرات ١٣).

وبالزواج تتوثق الصلات والعلاقات بين الناس، والزواج من ذوي القرابات يؤدي إلى ضعف الأجسام وخمول الأذهان، وفي هذا المعنى قال الشاعر:

تجاوزتُ بنت العم وهي حبيبة مخافة أن يضوي عَلَيَّ سليلُها

ولعل ظاهرة ضعف النسل في ذوي القرابات من الأسباب التي اقتضتها مشيئة المولى عَزّ وجَلّ، وجرت بها سنته في خلقه ليحفز الناس إلى التغريب، عند اختيار الزوجات حرصاً على توسعة دائرة التعارف وتأكيداً لرابطة الإخوة بين الأسر والعائلات.

والفتاة في الإسلام ليست سلعة تباع وتشتري بلا رأي، بل لها الحق في قبول الخاطب أو رَدّه حتى لو كان ابن عمها، قال ﷺ: (**لا تنكح الأيم حتى تستأمر، ولا تنكح البكر حتى تستأذن**)[٢٩] أما مسألة ابن العم، لأنه فقط ابن عم، فانا نقول... دعوها فإنها منتنة.

وان ابن عم المرأة من شد أزرها وأصبح يحمي عرضها وهي لا تدري

المَرَة لا تخليها حَلالَك، ولا تخليها من بالك

قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ**﴾(النور ١٩) وهذا من الأمثال التي تدعو صراحة إلى الفاحشة في المجتمع المسلم، لأنه يحض على نبذ الزواج وترك المعاشرة الحلال، إلى الحرام.

(٢٩) متفق عليه، من حديث أبي هريرة ﷺ.

"**المرة لا تخليها حَلالك، ولا تخليها من بالك**" أي: لا تتزوج لتستمتع بالحلال، وفي المقابل لا تخلي المرأة من ذهنك، بل اجعلها محور تفكيرك، في الحل والترحال، في اليقظة، والمنام، لا تفكر إلا بها، كيف تستمتع بدون أي التزام، وحذارِ أن تُقْدِم على خطوة مجنونة اسمها "الزواج"، لكن "**العب وعاشر والعرض مش داشر**" فاعمل ما بدا لك، وعاشر كيفما يحلو لك، والأفضل أن لا تصل إلى نقطة اللارجعة، فالعرض "مش داشر" قد يقودك إلى الإرغام على الزواج، ومثلما قيل "**عشيق أبدى من جوز**"، فالزواج ربط والتزام أنت في غنى عنهما، الم يقل الشاعر:

لا تبغ في الدنيا نكاحاً لازما وافعل بها ما يفعل الدبور [٣٠]

إذ مـا تراه حين يدرك فرصـة يدنو ويـلسع لـسعة ويطير

والشعراء يتبعهم الغاوون، وهذا الشيطان من شياطين الشعر، لَسَعَ هذه اللسعة وطار أو "غار"، وكم من قارئ ومطبق، وكم من سامع ومصدق، والشعراء كما قال البحتري أربعة:

فشاعر يجري ولا يجرى معه وشاعر ينشد وسط المعمعة

وشاعر مـن حـقه أن تسمعه وشاعر من حقه أن تصفعـه

والصَّفع أقل حق يمكن أن يؤدي لمثل هؤلاء الشعراء، والشِّعر إما شُعور وإما شَعير، والشعير تستسيغه الحمير.

إن العقل السليم، والفهم المستقيم، يرفض هذا المنطق، لأنه ينافي الفطرة، النقية، ويدعو إلى ترك حبل الغريزة على الغارب، وبذلك نستسلم لحيوانَيّتِنا، ونعطي عقولنا إجازة مفتوحة وفي ذلك مفسدة، وأيّة مفسدة أكبر من أن نتشبه بحيوان الغاب. فالغرب عندما طَبّقوا مفاهيم هذه الأمثال، فلم يجعلوا المرأة حلالهم، ولم يخلوها من بالهم، أرسل الله عليهم إمراضاً نفسية كالسعار الجنسي والشذوذ، وازدادوا شقاء على شقاء، وذاقوا من ضنك الحياة وقلقها ما دفعهم إلى الانتحار، ومن لم يقتل نفسه بحديدة قتل نفسه بالمخدرات، ومن نجا من هذه وهذه سلط الله عليه طاعون

(٣٠) لعله تحريف أو تصحيف والكلمة الفصحى (الزنبور).

العصر "الايدز"، ذلك لأنهم آمنوا بمقولة "إذا كان الحليب موجوداً فلماذا نقتني البقرة" وهذه المقولة ليست بعيدة عن أمثالنا المذكورة، التي تدعو إلى نهب اللذة واقتناصها بالحرام. وتحض على المجون والخلاعة والرذيلة الفاحشة، انك تشم رائحة الفساد والانحلال منبعثة من هذه الأمثال التي خرجت من حمأة الملذات والشهوات.

و"العب وعاشر" أليس ذلك استهتار بالقيم والأخلاق الكريمة؟ الإسلام يدعو إلى أن نجعل المرأة حلالنا، ومن دعا إلى "العزوبية" والرهبنة والتبتل، وسرقة اللذة، وإشباع الميل الجنسي بالزنا والاتصال المحرم، ليس منا، كان رسول الله ﷺ ينهى عن التبتل، ويقول: (**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج**)[٣١]، وكان ﷺ يقول: (**ما بال أقوام قالوا كذا وكذا؟! ولكني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مِنّي**)[٣٢].

قال طاووس لإبراهيم بن ميسرة: تزوج أو لأقولن لك ما قال عمر بن الخطاب لأبي الزوائد "ما يمنعك من النكاح إلا عجز أو فجور"، وقائل مثل هذه الأمثال، هجم عليه السُّكر وهزم منه العقل والفكر، وما دعاه إلى ما دعا إلا الفسق والفجور.

والإسلام ما أمرنا باللعب والمعاشرة دون زواج، بل أمر أن يكون للرجل زوجة حتى يعمد إليها عند حاجته للنساء، قال ﷺ: (**إذا أحدكم أعجبته المرأة فوقعت في نفسه فليعمد إلى امرأته فليواقعها فان ذلك يرد ما في نفسه**)[٣٣]، هذا هو الأدب، وهذه هي المعاشرة الحلال، فيها الطمأنينة والراحة، توصد كل باب يدخل منه القلق والشذوذ والأمراض.

إن أولياء الرحمن، الذي قال ربهم في محكم القرآن ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسانِ**﴾ حق لهم أن يقولوا لأولياء الشيطان:

الله يعلم أنَّا لا نُحِبّكم ولا نلومكم ألا تحبونا.

---

(٣١) متفق عليه، سبق تخريجه برقم ٢١.

(٣٢) متفق عليه من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٣٣) أخرجه مسلم، ورواه الخطيب عن عمر ﷺ بلفظ: (إذا رأى أحدكم امرأة حسناء فليأت أهله، فان البضع واحد ومعها مثل الذي معها)، ورواه الترمذي بمعناه، انظر حديث رقم: ٢٣٥ في السلسلة الصحيحة.

قَصْقِصْ طيرك لا يألف غيرك

هي وصفة للسعادة، وعنوان سعادة المرأة أن يستمسك بها زوجها ولا يُشْرِك معها امرأة أخرى؛ لأن المرأة "**مثل الفريك ما بتحبش شريك**" وقد قال المِعَرّي:

متى تُشرِك مع امرأة سـواهـا فقد أخطأتَ في الرأي التَّريكِ

فلو يرجى من الشركـاء خير لما كان الإله بـــلا شريـــكِ

ولأن "**الشركة تركة**" و" **الضُّرَّة مُرَّة**". فإنّ هَمّ المرأة الوحيد هو البحث عن أنجع السُّبل وأنجحها، وأكثرها تأثيراً وأسرعها استجابة، في سبيل تحقيق هذا المطلب الهام.

ولأن هذا هو المطلب الرئيس لنصف المجتمع الحلو من الجنس اللطيف، كان لا بد أن يكون هناك قاموس من النصائح توصل المرأة لهدفها، ومن هذه النصائح، ما تقوله النساء -لا فض الله أفواههن-: "**قصقص طيرك لا يألف غيرك**" وبهذا تَعْقِد كل امرأة العزم، وتحصر الهَمّ، في قَصْقَصَة الطير بآي أسلوب، وكما قيل "**لكل دُب رباط**" ورباط الدببة من الرجال القصقصة.

فيا أيتها الزوجة التي تبحث عن السعادة، ما عليك إلا أن تفكري في طريقة دبلوماسية ناعمة تنتفين بها ريش زوجك، ولسوف تشعرين عند ذاك بالسعادة التي قد تُنْسيكِ أمكِ وأباكِ وابنكِ وأخاكِ، وتنسيكِ أيام الفكر وأيام الصبر المُرّ، سعادة دائمة ظاهرة بائنة، "ويا فرحتك"، إن كانت بائنة بينونة كبرى.

بهذه الطريقة تحصلين على بوليصة تأمين من زواج زوجك من امرأة أخرى، عليك فقط فتح باب صغير من الحرب الباردة، حرب النتف والقصقصة.

والمقصود بالقص، والنتف، هو "تقشيط" الزوج من كل قرش يتوفر لديه، إذ لا تكون الحياة سعيدة، إلا إذا كان الزوج "على الحديدة". حُكِيَ أن زوجاً كان يُهَدّد زوجته بالزواج عليها فكانت تقول له "سلامة سندي" أي ا لفقر، فَفَقْرُ الزوج سندٌ للمرأة.

وكل امرأة تأمن جانب الرجل هي امرأة مغفلة، والاتصاف بسوء الظن والشك الدائم في تصرفات الرجل، دليل حنكة، وبذلك فان النصيحة الذهبية -والمرأة تحب ما

هو ذهبي، إلا السكوت، فانه من الذهب المغشوش - كفيلة بحبس الطير في عشه رغماً عن أنفه.

فلا تأخذك العاطفة نحو زوجك الذي يغادر البيت كل صباح، مهما كانت حالة الطقس، يترك جو العائلة الدافئ إلى جو كَدّ وَنَصَب، حاملاً معه هَمّ العائلة والمستقبل، لا تصدقي زوجك في زعمه أن ما يَدّخره جراء هذا الكَدّ هو لكِ وللأطفال، فان هذا الكلام، المعسول يخفي وراءه أهدافاً غير معسولة، وأن وراء الأكمة ما وراءها، فلا تقتصدي، ولا تدخري، واشتري كل ما تحتاجينه وما لا تحتاجينه، المهم ان يبقى زوجك "كما خلقتني يا رب".

لكن ما الذي يحصل للأسرة والمجتمع بشكل عام، إذا طَبّقَت هذه الأمثلة، ونفذتها نساؤنا؟

إن الرجل لا يُحبَس بقيود التبذير وضخامة المصروف، بل إن ظهرت على المرأة أعراض حب و"تقشيط" الرجل لهدف في نفسها، فان هذه المرأة في نظر زوجها وكل الأزواج امرأة تُدَمّر بيتها، وهي حمقاء جاهلة، لا ينبئ فعلها بخير، إنما يدل على أنانية مفرطة إلى حَدّ الجنون، وتصرف لا يخبر عن حب، إنما عن كراهية، ولا يلام هذا الرجل إن قال لها بعد ذلك "الباب يفوت جمل" وقد قيل:

متى يبلغ البنيان يوما تمامه إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

الزوج يحبس بالمودة والرحمة وليس بقصقصة الجناح، فهما صماما الأمان من انهيار الحياة الزوجية.

فمرافقة الزوج إلى الباب بابتسامة واستقباله بابتسامة عند ذهابه وإيابه من العمل، واهتمامك بنفسك وبجمالك في البيت وليس لمناسبات الخروج. وشعور الزوج بامتصاصك مشكلات الصغار وتدبرك أمورهم بحيث تكفيه مؤونة توتر الأعصاب... وعمل المفاجآت السارة لزوجك بتغيير روتين الحياة أحياناً، وشعوره باهتمامك الشديد به، وبأنه الأول في حياتك، ورضاه غايتك وهدفك، وشعوره بأنكِ مُهتمة بما يجلب له الراحة والمتعة،... واستدراجكِ زوجكِ بلطفٍ إلى أعمال الدين وحَضّكِ إياه على الخير

والتقوى،... وتحسسكِ ما يزعجه من تصرفاتك، أو ما يسوء في عينيه من سلوكك فتتجنبيه، إحساسه إن سعادتك بكلمة تدليل منه، أو بسمة حلوة من شفيته، تحريك ما يجمل في عيني الزوج.. بهذا يحبس الزوج.

أنتِ أيتها الزوجة نعمة إذا حبستِ زوجكِ بالمودة والرحمة، وأنتِ نقمة إن فَكّرتِ بقصقصة جناحه، أنتِ نعمة، إذا نظر إليكِ سررتِهِ، وإن أمركِ أطعته، وان غاب عنك حفظته في نفسك وماله، ونقمة إن ضيعتِ مالَه لأنكِ تُضَيّعين نفسكِ.

إن حفظ مال الزوج من سمات المرأة الصالحة، والمرأة العاقلة تبني بيتها والسفيهة تهدمه هذا هو انطباع الرجال.

فهل ما زلتِ تعتقدين بأوهام الأمثال التي "تخرب البيوت"؟ وهل ما زلتِ بعد كل هذا تَرَينَ أن قصقصة الطير هي أحسن الحلول لحبسه؟

إذا لم يكن في منزل المرء حرة مدبرة، ضاعت مروءة داره

اللّي بِيرُد عالمَرَة، مَرَة

فالذي يستمع إلى مشورة امرأة فينفذها ولو كانت صحيحة- فإنه والمرأة سواء، لأن المجتمع يرفض النزول إلى رأي المرأة، فهو عار وأيّ عار.. فالمرأة عقلها ناقص، وعندها تخلف، ولا يليق بالرجل -وهو رجل- له القوامة والسيادة والسيطرة أن يُسَلّم برأي امرأة مهما كان صواباً، وعليه أن "**يركب رأسه**" حتى يُثبت رُجُولته، وهيمنته، فان لم "يركب رأسه" رَكِبَته زوجته، ونكاية بالمرأة، وزيادة في تحسيسها بالنقص:

"**شاوروهن وخالفوا شورهن**" فإن لم تخالف ما أشارت به عليك فقد فَرّطتَ في رجولتك، ولقد جاء ذلك في كتب الأقدمين "**ومن فات قديمه تاه**"، قالوا: إن لم يجد أحداً يشاوره يشاور امرأته ثم يخالف رأيها لان في خلافها البركة لقلة عقلها ونقصان دينها، وللحديث "شاوروهن وخالفوهن".

مع العلم أن الرسول ﷺ استشار أم سلمة في صلح الحديبية[٣٤] وكان في مشورتها البركة، فقد أصابت كبد الحقيقة، وأتت أكلها في حينها، وظهرت نتيجتها فوراً، وأنقذت المسلمين من الهلاك، الذي كاد يودي بهم عند رفضهم أمر نبيهم ﷺ، وهذا وحده دليل لاستشارة المرأة الفاضلة وافرة العقل.

أما حديث (**شاوروهن وخالفوهن**) فهو موضوع على الرسول ﷺ ، وكَذِبٌ عليه وافتراء[٣٥]. فهل نترك السنة الصحيحة لقول مَثَلٍ جاهلي أو حديث مفترى؟

إن في التاريخ أسماء لِنِساء رجحن على كثير من الرجال، من وفرة عقل، وحسن تفكير، آسيا امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وعندما تَكَلَّم الناس عن المشورة والمشاورة لم يستثنوا النساء، حتى الشعراء ما فَرَّقوا:

خصائص من تشاورهم ثلاث فخذ منها جَـميعاً بالوثيقة
وداد خـالص ووفـور عقــل ومعرفة بِـحالك والحقيقـة

وإن قادة الجيش والوزراء ومجلس الشورى في حكومة بلقيس كانوا يُدركون حصافة رأيها حين طلبت آراءهم فابدوا المشورة ثم استدركوا ﴿**وَالأَمْرُ إِلَيكِ**﴾.

وكان لابنة الرجل الصالح رأي ثاقب في موسى عليه السلام عندما قالت لأبيها: ﴿**يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ**﴾(القصص ٢٦).

وكثيراً ما تكون المرأة أعرف من الرجل وأكثر اطلاعاً منه على بعض المواضيع، فلا بد حينئذ من مشورتها، فقد يكون فيه الخير والصواب.

وقد قَرَّرَ الإسلام أن الرجال والنساء بعضهم من بعض، وهم متساوون في ميزان الأجر والثواب ﴿ **أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ** ﴾(آل عمران١٩٥)، وليس صحيحاً أن الرجل أفضل من المرأة وأسمى لأنه رجل،

(٣٤) قصة صلح الحديبية رواها البخاري واحمد وغيرهما، وفيها قول أم سلمة: "يا رسول الله أتحبُّ ذلك؟ اخرج ثم لا تُكَلّم أحداً منهم حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك...."

(٣٥) ذَكَره الشيخ الألباني رحمه الله في السلسلة الضعيفة برقم (٤٣٠) وقال: لا أصل له، وذكر أيضاً حديث: (هلكت الرجال حين أطاعت النساء) برقم (٤٣٦).

وأن الأنثى دونه لأنها أنثى، فَرُبّ امرأة أفضل من رجل وأرقى عقلاً وأسمى وأنقى ضميراً.

ولا يقف المثل عند حد رفض مشورة المرأة، بل يلبس أحياناُ مسوح المشايخ ويخرج الكلام على شكل فتوى: "طاعة المرة تدخل النار"، فليت شعري من الذي يجرؤ على مثل هذه الفتوى ويفتري على الشرع؟ كان عمر بن الخطاب ﷺ يستشير في الأمر، حتى انه كان ربما استشار المرأة فأبصر في رأيها فضلاً. والرسول ﷺ يقول: (**البكر تستأمر في نفسها**)[٣٦]، أي تُشاوَر، فكيف لا يكون من النساء من يؤخذ بمشورتهن، والأنبياء أنفسهم كانوا يأخذون برأيهن؟

لا تحقر برأي يأتيك الضعيف به فالنحل وهو ذباب، طيب العسلِ

مكتوب على باب الجنة: ما في حَماة بتحب كِنَّة

ناصح مَرَّت به التجارب، واطلع على تاريخ المشارق والمغارب، جاء بهذا المثل، فاهلك به الحرث والنسل، مَثَلٌ بالفساد مشهور، وَرَق شَرّه في البلاد منشور، وكتاب مصائبه بين العباد مسطور "**مكتوب على باب الجنة، ما في حماة بتحب كِنَّة**".

يتبادر إلى الأذهان عند قراءة صدر المثل، أن ما هو مكتوب على باب الجنة "الشهادتان"، "لا اله إلا الله محمد رسول الله"، لتوارد الأخبار في ذلك، ولما أخرجه ابن عساكر عن أبي هريرة: (مكتوب على باب العرش، لا اله إلا الله أنا الله وحدي لا شريك بي، ومحمدٌ عبدي ورسولي أيدته بعلمي)، وقد نتقبل هذا القول بقبول حسن.

لكن الذين يوحون إلى أوليائهم زُخرف القول غروراً، من الهمز والنفخ والنفث، بَدَّلوا هذا القول فافتروا وضلوا وأضلوا.

(٣٦) رواه الشيخان واحمد، ولفظ مسلم: (**البكر تستاذن في نفسها**).

مكتوب على باب الجنة، حقيقة مُسَلَّم بها لا مجال للشك فيها، ومن يا ترى هذا الذي كتب على باب الجنة؟ ﴿ **قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ** ﴾(يونس/٥٩).

روى الشافعي عن أبي يوسف قال: أدركتُ مشايخنا من أهل العلم يكرهون الفتيا، أن يقولوا هذا حرام وهذا حلال، إلا ما كان في كتاب الله تعالى بَيّنا بلا تفسير.

لو أن هؤلاء قد قالوا في مسألة معينة هذا حلال، وهذا حرام، لهان الخطب رغم فداحته، أما أن يصل الأمر إلى الجزم بالمغيبات والحكم على مسائل عقائدية بأحكامٍ ما انزل الله بها من سلطان، وإنما يتبعون الظن وما تهوى الأنفس، فإن ذلك وأيم الله لهو الطامة الكبرى.

هكذا، بِجَرّة قلم أو فلتة لسان، فَكَّرَ قائل المثل وَقَدَّر، فَقُتِلَ كيف قَدَّر، ثم نظر، ثم عبس وبَسَر ثم أدبر واستكبر، وأصدر حكماً لا يقبل النقض ولا الاستئناف، حكما صارماً شَمِلَ قلوب كل نساء الأرض من زمن حواء إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها "**ما في حماة بتحب كنة**" ولأجل أن ترسخ هذه القضية في الأذهان، ويصبح التصديق بها رُكناً من أركان الإيمان ربط هذا الحكم بالجنة، فكما أن الجنة قطعية الثبوت، فإن بغض الحماة للكنة قطعي أيضاً، بل هو في رأس الأمر، فهو مكتوب على الباب مباشرة.

كيف يكون هذا؟ من الذي رأى هذه الكتابة فأخبر بها؟ وبأي لغة كتبت؟ وبأي حروف رسمت؟ أأوحي إليه؟ أم أُنزل عليه كتاب من فوق سبع سموات؟ أم عُرِجَ به إلى السموات العُلا فرأى من آيات ربه الكبرى هذه الكتابة؟

الأمر ليس كذلك، مع أننا لا نستبعد الصعود، فَرُبّما صَعَدَ بخياله المريض، فتخيل ما تحلو له نفسه أن يتخيل، أو انه أوحى إليه من مُسترقة السمع الذين يخلطون مع الكلمة مئة كذبة قبل أن يتبعهم شهاب ثاقب، أو ربما أُنزل عليه كتاب من الشيطان. ورغم كل هذا فالمثل ليس صحيحاً على عمومه، والواقع يكذبه.

صحيح أن غريزة التملك تدفع إلى تنازع الزوجة وأم زوجها (حماتها)، لكن هناك الكثير من الأمهات العاقلات وَصَلْنَ إلى قناعة تقول: إن هذه سُنَّة الحياة، وقد

كانت الحماة في يوم ما كِنَّة، و"**وجود الحماة في الدار زي الكي بالنار**"[٣٧] مسألة فيها نظر، فكثير من الحموات يتعاملن مع زوجات أبنائهن بِحُب ومودة، فالمسألة لا تُعمم، ولا يجب أن تُعَمّم، وإلا فان بيوتنا تصبح جحيماً لا يطاق، ذلك أنه لا تخلو بيوتنا الشرقية من اجتماع الحماة والكنة مع بعض.

أوصيكِ يا بنتي فإني ذاهب أوصيكِ أن يَحمدكِ الأقــاربُ
حماتك في البيت أم ثانيـــة والزوج إن الزوج نعم الصاحب

لا تـأَمّن للمَرَه وَإن صَلَّت، ولا للشمس وإن وَلَّت

النساء من طَبعهن الغدر ونسيان المعروف، وقد جُبِلْنَ على الخيانة ونُكران الجميل "أَكّالات نَكّارات" والكَيِسْ الفَطن من يتصف بسوء الظن تجاه زوجته، وينظر بريبة في كل تصرفاتها، بل وفي كل سَكنة أو حركة أو نظرة، فالأمان ليس من طبع المرأة وقد قيل:

لا تسـألونـــي بالنساء فإنني عليم بأدواء النـساء طبيبُ
إذا شاب رأس المرء أو قَلَّ ماله فليس لـه في وُدّهن نصيبُ

وقد قيل أيضاً "**النسوان حبال إبليس**" و"**الشيطان أستاذ الرجل وتلميذ المرأة**"، وقد وَصَفَ الله كيدها بأنه عظيم، بينما وصف كيد الشيطان بالضعف، وقد يَتَنَدّر لك البعض فيقولون -ضعف كيد الشيطان عندما ذكر في سورة النساء، و "**حيل النسوان غلبت حيل الشيطان**" و"**المثل ما خلاش إشي إلا قاله**"، ألم يقل: "**إذا شُفت بلد دايرة على مرة قول الله يعين البلد عليها**".

فالركون للمرأة سفه وسذاجة، وهـي مثل "**شمس شباط**"، وكُل ما يُرى منها فهو

(٣٧) لقول المثل: "الكي بالنار ولا وجود حماتي في الدار".

تمثيل، حتى البكاء، فان دموع المرأة جاهزة الاسترسال في أي لحظة شاءت، ونعيذ القارئ من المثل الماجن الذي يُقال في دموع المرأة.

هذه وصية للرجل، فما وصية المرأة؟

" **يا مأمّنة للرجال، يا مأمّنة للمَيّة في الغربال** "

والتي "تُؤَمّن" الـمّية في الغربال، لا شك أنها بلهاء غبية، ولا يَكْسِر حاجز البله هذا إلا بأنّ تفتح عينيها على كل تصرفات الرجل.

تصور معي العروس قبل أن تخرج إلى بيت زوجها، تحمل معها هذه الوصايا "القيّمة" من أمها أو صويحباتها "المجرِّبات" وتخيل العريس، وقد وَقَرَ في أذنه ما سمع من وصايا من أصحابه... وبعدها تتوقع كيف يكون شكل البيت إذا ما التقى "الأزواج الأعداء" تحت سقف واحد، كل منهم ينظر إلى صاحبه بحذر وترقب وتحفز وتوتر، فإنَّ بذور الشك قد بذرت ولا بد أن تُثمر.

إن بيتاً جَمَعَ زوجين يحملان هذه المفاهيم هو أشبهُ ما يكون ببيت العنكبوت، حيث الوسوسة والريبة، والشك والتخوين، وتفسير كل كلمة أو حركة بما يُمليه العقل الذي شُحِنَ بهذه المفاهيم.

يغشون بينهم المودة والصفا وقلوبهم محشوة بعقارب، فالزوج عدو مبين، ولو أظهر الحب، شرير أحمق، وشِنظير أخرق، وشر لا بد منه ، والزوجة سيئة الخلق ولو بدت ضعيفة مسكينة، -رقيقة الملمس كالأفعى.

وهكذا يُبنى بيت الزوجية، لا رغبة ولا ألفة، ولا ميلان قلب، ويبدآن معا بلا اتفاق يسطران رواية الزوجية المعذبة.

وقفت كثيراً عند قوله تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً**﴾(الروم/٢١)، وَقُلتُ في نفسي: لِمَ لَمْ يُذْكَر الحب؛ وإنما المودة والرحمة؟ مع أن الحب ما ذُكِرَ بين ذَكَرٍ وأنثى ألا في قصة امرأة العزيز ﴿**قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً**﴾(يوسف/ ٣٠). كذلك قَول عمر بن الخطاب ﷺ لمن رَغِبَ في تطليق زوجته لأنه لا يُحِبها: أَكُلّ البيوت بُنِيَت على الحب، فأين المروءة والتذمم؟!

إنّ الزواج آية من آيات الله، وهو سَكَن للنفس والجسد معاً، في الزواج التئام للشمل واطمئنان للقلب، وراحة للعقل من تعب التفكير، وعمار للدنيا، وبه تتم نعمة الله على الزوجين.

نحن بحاجة إلى مودة ورحمة، ولسنا بحاجة إلى حُبّ مُجَرّد، ذلك أن الحب مربوط بالشهوة، والشهوة لا تخلو من القسوة والعنف.

أما هذه الأمثال فالرحمة فيها مفقودة، والمودة غير موجودة، تُصَوِّر من الأكاذيب كيف شاءت، وتُجَسّم الخيال كيف أرادت، بها تهدم البيوت، وتشتت الأُسَر، وتنتشر الرذيلة، وتستبيح من طرف خفي الأعراض.

والعيش ليس يطيب بين اثنين في غير اتفاق

إلّلي خَلَّف ما مات

الموت حقيقة واقعة تُثْبِتُ نفسها باستمرار مع كل جثة نُودِعها التراب، وقد اعتاد الناس على إطلاق اسم "ميت" على كل إنسان توقف قلبه عن الخفقان فأصبح جثة هامدة تستوجب دفنها في مكان مَعَين.

ويتردد على السنة الناس حِيال هذه القضية أمثلة، سواء عند سماع الخبر كقولهم "كاس على كل الناس" وعند التعزية "اللي خَلَّف ما مات".

ولا شك أن الموت كاس على كل الناس، ولا ريب أن ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْها فَانٍ**﴾، لَكن هل صحيح أن كل من خَلَّف لم يمت؟ والمقصود من نفي الموت ليس الحقيقة، إنما بقاء نَسله من الذكور فهو بمثابة امتداد لحياته.

كنا نقرأ في المدارس قصة المثل "**وافَقَ شَنّ طَبَقَة**" والذي جاء فيها ".... حتى إذا دخلا القرية لقيتهما جنازة، فقال شَنّ: أَتُرى صاحب هذا النعش حياً أو ميتاً؟ فقال له الرجل:

- ما رأيت اجهل منك، ترى الجنازة وتسأل عنها أميت صاحبها أم حي؟

ونهاية القصة أن الرجل عندما أخبر ابنة له اسمها "طبقة" عما قاله شن من غريب الكلام فقالت: يا أبتِ ما هذا بِـجاهل ثم بدأت تفسر قوله، ومنه: أما قوله في الجنازة، فأرادَ هل تَرَكَ الميت عقباً يَـحْيي بهم ذِكره أم لا؟... إلى آخر القصة" أي باختصار "اللي خَلَّف ما مات".

وهذا اعتبار غير صحيح يُكَذّبه القرآن، وتُكَذّبه السُّنّة، ويكذبه الواقع، فقد يكون ما خلف من أولاد من أسباب شقائه في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿**وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا**﴾(سورة نوح ٢١) فالولد هنا كان من أسباب خُسْران أبيه، وإذا مات الميت انقطع عمله إلا من ثلاث، ومنها - كما قال الرسول ﷺ: (**أو وَلَدٌ صالح يدعو له**)[٣٨] فان كان الولد طالحاً فقد أغلق هذا الباب.

وإن الولد كثيراً ما يكون عبئاً على أبيه حتى بعد الموت، فَيُعَذّب الأب من أجله، وبما ترك له ثروة جمعها من حلال أو حرام، يحاسب عليها ويستمتع بها الابن، وتطول رقدة الأب فلا تَصِلُه من الابن دعوة في ظهر الغيب أو دعاء بالرحمة والمغفرة.

فإذا كان هذا الأب الذي "خَلَّف" ورَبّى وَضَحّى وَضَرَب في الحياة شرقاً وغرباً من أجل أبنائه، وَتَعَرّض للخوف والخطر، وكابد ونصب، وتحمل شظف العيش، وقد يتحمل الإهانة من أجل هذا الولد، ثم بعد موت الأب ، ينسى الولد أو يتناسى حق أبيه عليه ولو بالاستغفار، فهل هذا الوالد الذي "خَلّف" ما مات؟ كلا، إنه مات حقيقة ومجازاً.

ثم تعال معي إلى العظماء في هذا العالم وعلى رأسهم رسول الله ﷺ ، إنّه لم يخلف ذكوراً عمروا بيوته ووسعوا تجارته وورثوا ملكه وزعامته، فان محمداً مات عن أربع بنات ليس فيهن ذكر واحد، ومع هذا فانه ﷺ ما زال ملء السمع والبصر، وأنه لم يَمُت ذكره ولن يموت بإذن الله تعالى إلى قيام الساعة، وقد قيل:

---

(٣٨) الحديث رواه الشيخان و أصحاب السنن عن ابي هريرة رضي مرفوعاً، ومتنه: (إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث، صدقة جارية أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له).

ارفع لنفسك في القيامة ذكرها فـالذكرُ للإنسان عمر ثــانٍ

وأكاد أجزم إن كثيراً من القُرّاء لا يعرفون اسم ابن الإمام الشافعي أو الإمام احمد، ولا يعرفون عدد الذكور الذين خلفهم أبو حنيفة ومالك، ومعظم القراء لا يعرفون أبناء السلطان قطز، ومع هذا فإن ذكرهم لم يمت.

فليس للأولاد علاقة كبيرة بين امتداد ذكر الإنسان وانقطاعه، ولا يصح أن يكون "بيت البنات خراب، وبيت الصبيان عمار" ، فَكثير من الناس خلفوا ذكوراً وماتوا، وكثير خلفوا إناثاً فعاشوا في القلوب، وكثير لم يتزوجوا أصلاً، وذكرهم باق... لم يُـخَلّدهم الولد إنما خَلَّدَهم ما وضعوه من بصمات واضحة في هذه المسيرة العالمية الطويلة، ﴿**وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسانِ إلا ما سَعَى**﴾(سورة النجم ٣٩)، وقد يكون الابن عائقاً عن امتداد حياة أبيه، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ**﴾(سورة التغابن ١٤)، والإمام النووي وابن تيمية لم يتزوجا أصلاً، ومع هذا ما يزال ذكرهم في العقل والقلب.

كتب أحدهم كتاب "المائة الأوائل" الذين كان لهم تأثير ما على الكرة الأرضية منهم الساسة، والعسكريون، والعلماء، والاقتصاديون، والفلاسفة، والمخترعون، والحكماء والمصلحون، ولم يكتب سطراً واحداً عن أي من هؤلاء يفيد أن امتداد ذِكْره ورفعه إلى درجة المائة الأوائل كان لكونه "خَلَّف ذكوراً"، فهذا المثل خاطئ إذ لا يخلد في الذهن إلا من عاش لأجل الناس، وأَثَّر فيهم تأثيراً واضحاً، بحيث يزداد بريق هذا الاسم عبر التاريخ بقدر اتساع دائرة تأثيره.

خير ما ورث الرجال بعدهم أدب صـالح وحُـسن ثنـاء

مُوت البَنات سُتْرَة

قد عَلِمنا أن معنى "السُّترة" هو كل ما يحجب أو يَستُر، والمقصود أن موت البنات سُترة للولي من الفضيحة، لأنه إن كان موتهن سُترة، فحياتهن فضيحة، وموت البنت نعمة، وكما قال المثل: "**موت وليتك من صفاية نيتك**" لأن "**بيت البنات خراب**" ولأن "**البنات غلبات**" فيا ويل المرأة إذا حملت فولدت أنثى "**مكروهة وجابت بنت**"، ولهذا ينبغي الاهتمام بالذَّكَر وإهمال الأنثى "**دلل ابنك بيغنيك ودلل بنتك بتخزيك**".

سبحان الله الذي يقول في هؤلاء: ﴿ **وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ** ﴾(سورة النحل ٥٨). هكذا يتوارى عن القوم خجلاً من هبة الله تعالى، فهو الذي ﴿ **يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ** ﴾(سورة الشورى/٤٩)، وإذا كان موت البنات سُترة، فإنَّ في ذلك معنى خفياً تُفْصِح عنه الأمثال الأخرى، من إهمال تربية البنت وتنشئتها وتعليمها وتأديبها، كقولهم: "**البنت إما جبرها وإما قبرها**" والمثل -وان لم يستطع أن يُصَرّح بموافقته على مبدأ الوأد بشكل علني، إلا أنه وأدها على الأقل معنوياً من حيث عدم الإحسان إليها، وعدم العدل بين الذكور والإناث، وغالباً ما تكون البنت أكثر حناناً وَبِرّاً بوالديها من أخيها، وقد تجمع البنت من الصلاح والتقى ما لم يحصله أخوها، قال تعالى: ﴿ **آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا** ﴾(النساء/١١).

المثل يعتبر أن أفضل ختن هو القبر فهو استر للعرض، أليس في موتها سترة؟ لكن رسولنا ﷺ يعتبر أنّ الإحسان إلى البنات سُترة.. وفرق كبير بين السُّترتين، يقول ﷺ: (**من ابتُلِي من هذه البنات بشيء فَأَحْسَنَ إليهنَّ كُنَّ له ستراً من النار**)[٣٩].

البنت هبة الله تعالى، فراشة صغيرة تنقل الربيع أينما حلت، وتطهر القلوب "بتدليلاتها"، وتشرق النفس بابتسامتها، فإذا ما كبرت قليلاً فهي أخت لأخوتها في

(٣٩) متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها، انظر السلسلة الصحيحة ٣١٤٣.

مقام الأم الصغيرة، يشعر الإخوة في قربها بحنان والدة من عمرهم، وبراءة ملاك في سنهم، فإذا ما تزوجت فقد أدارت ظهرها للدنيا لتقف حياتها على راحة زوجها في جو من المودة الصادقة والحنان الدفيء، سَكَنٌ يشع البيت بالرحمة، فإذا ما أنجبت فهي أم تبذل حياتها في سبيل أبنائها ثمرة أحشائها، لا يقعد بها تعب، ولا يطفئ جذوة حنانها مرض، ولا يحبطها نكران للجميل، فإذا ما كبر الأولاد وتزوجوا فهي جدة تشع حناناً يتحلق الأطفال حولها تسمعهم أحاديثها الحلوة، وتستمتع ببريق عيونهم وانفعالاتهم، فهي نصف المجتمع، إذ لولاها لما وُلِدَ هذا الناكر للجميل، صاحب مثل هذه الأمثلة.

أحاديث الرسول ﷺ تعد بالجنة وبمرافقته ﷺ في الفردوس لمن عال جاريتين فأحسنَ تربيتهما، ذلك أن البنات بحاجة إلى مزيد من الرحمة والحنان لطبيعتهن الرقيقة، فقد شَبَّهَهُنَّ الرسول ﷺ بالقوارير، اسمعوا إلى قوله: (**من عال جاريتين حتى تبلغا، جاء يوم القيامة أنا وهو هكذا، وضم أصبعيه**)[٤٠].

ومجتمعنا الذي أُشربت قلوبهم مثل هذه المفاهيم، صب كل حنانه على الذكور وخَصَّهُم بما حرم منه الإناث. قيل وُلِدَ لإسحق بن محمد الصباح بنت، فساءه ذلك، وامتنع عن الطعام والشراب، فدخل عليه مجنون الكوفة "بهلول" فقال: يا أيها الأمير، أيسركَ أن يكون مكانها ولد ذَكَر وأنه مثلي؟

البنت والولد هبة الله تعالى فلا يغتم المرء بالبنت لأنَّ الصلاح مستور، قد يكون الولد صالحاً والبنت بخلافه، وقد يكون الأمر بالعكس، والنفع المستقبلي مُبْهَم، فلا يدري الإنسان أيهم أكثر نفعاً.

ثم اسمع هذه الكلمة الرائعة لمحمد بن سليمان، قال: الأولاد نِعَم، والبنات حسنات، والله عز وجل يحاسب على النعم، ويجازي على الحسنات.

وقال قتادة: رُبَّ جارية خير من غلام قد هلك أهله على يديه.

واستمع إلى العقلية الجاهلية التي ترى المصائب في إنجاب البنات "**مصائب الدنيا أربعة، الدَّين ولو درهم، والبنت ولو مريم، والغربة ولو ميل، والسؤال ولو كيف**

(٤٠) رواه مسلم والترمذي من حديث أنس ﷺ، انظر السلسلة الصحيحة ٢٩٧.

الطريق"، فقد اعتبر البنت مصيبة ولو كَمُلَ عقلها كما كَمُلَ عقل مريم العذارء.. البنت في نظر المجتمع الجاهلي مصيبة ولو ازدانت بالشرف والعفة كما ازدانت مريم البتول، فأي مصيبة أكبر من هذا الفهم؟!

روي أن أحداً من العرب يُكَنى بابي حمزة، تزوج امرأة فولدت له بنتاً فهجر منزلها، فمر بخبائها يوما وإذا بها تُرَقّص الطفلة وتغني:

ما لأبي حمزة لا يأتينا يظل في البيت الذي يلينا
غضبان ألا نَلِدَ البنينا تالله مـــا ذلـك في أيدينا
وإنا نأخذ ما أُعطينا

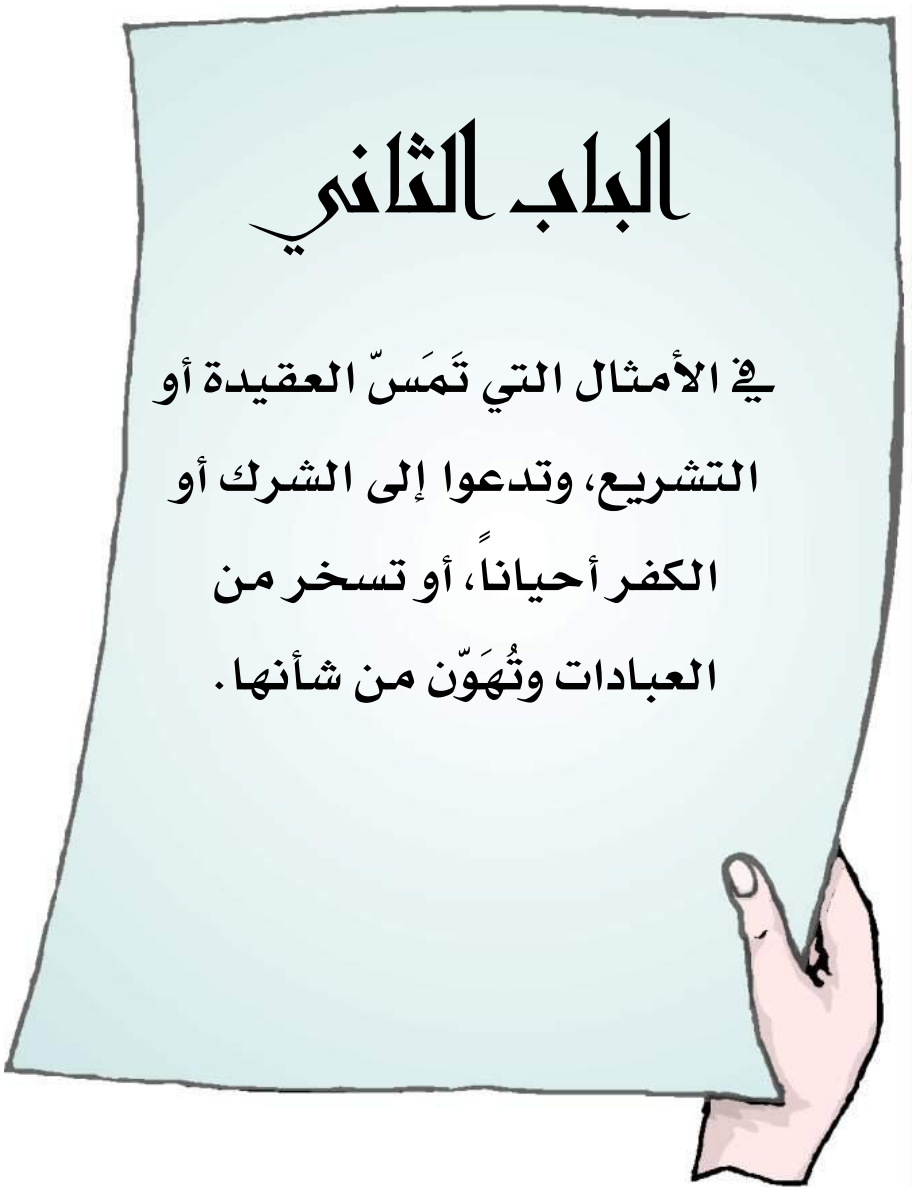

الباب الثاني

في الأمثال التي تَمَسّ العقيدة أو التشريع، وتدعوا إلى الشرك أو الكفر أحياناً، أو تسخر من العبادات وتُهَوّن من شأنها.

الله بيعطي الحلاوة لَلّي ملوش أسنان

إيمانٌ عجيب وإقرارٌ بأن الله هو المعطي، لكن عطاءه غير عادل، هذا الإله الحكيم التي تخفى على الناس حكمته، كما قال المتنبي، "يدق عن الأفكار ما أنت فاعل" يوصف بعدم التوزيع العادل!! فما معنى هذا؟ هل هو قَدْحٌ في حكمة الله في العطاء، أم أنَّه نوع من الحسد للمعطى له؟

الله هو مصدر العطاء والمنع يرزق من يشاء بغير حساب، وهو مُقَسّم الأرزاق، يبسط الرزق لعبادة ويقدر، يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور، خلق كل شيء فقدره تقديراً وهو أعلم كيف يرزق ويقدر الرزق.

والمعترض على الله قد ارتفع أن يكون شريكاً، وعلا على الخالق، بالتحكم عليه، ومن يرى أن حكمة الله في الرزق قاصرة فهو كافر. فإن كان تَوَقّف القلب عن الرضا بِحُكم الرسول ﷺ عُدَّ من نقص الإيمان، قال تعالى: ﴿ **فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ** ﴾(سورة النساء ٦٥)، فكيف يكون الإيمان مع الاعتراض على الله تعالى؟

إن عَقْلَ الإنسان قاصر، وفيه قوة التسليم وليس فيه قدرة الاعتراض على الخالق، وإن من يعترض على الله فقد خانه عقله، أو حَمَّلَ عقله مالا يطيق، قال بعض الحكماء: "**من لم يحترز بِعَقْلِهِ من عَقْلِهِ، هَلَكَ عَقْلُه**". فهناك أشياء لا ندركها لقصور عقولنا ﴿**وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ**﴾(سورة البقرة ٢١٦) فَمِنَ الممكن أن يكون هذا العطاء الكثير مقابل سلب نِعَمٍ أنتَ لا تعلمها، وقد يكون من قبيل (**إن الله لَيُمْلِي للظالم حتى إذا أخَذَهُ لم يفلته**)[٤١].

إذن فاحمد الله تعالى على ما أنتَ فيه بدلاً من الاعتراض والشكوى والتذمر والتسخّط، قال ﷺ: (**انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم،**

(٤١) متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم)[٤٢].

أما أن كان هذا المثل، يقال على سبيل الحسد، فاستمع إلى قول الله تعالى: ﴿ **أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ** ﴾(النساء ٥٤)، فهل تريد أن تكون من هؤلاء؟ أم ترغب أن تكون من صنف من قال فيهم: ﴿ **أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ** ﴾(الزخرف ٣٢)، أم تَوَدّ أن تكون من الصنف الثالث الذين قال الله لهم: ﴿ **وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ** ﴾(النساء ٣٢).

المسلم يثق بالله ويرفض هذه الأصناف ويوقن بأن رحمة الله خَيْرٌ مِمّا يَجمعون، والمسلم لا ينظر إلى أخيه بعين الحسد، لأنه فَهِمَ ما روي عن الرسول ﷺ: **(إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب)**[٤٣].

إن أصحاب هذا المثل، المؤمنين به السائرين على مفهومه هم من تلك النوعية التي قالت عندما رأت قارون يخرج في زينته: ﴿ **يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ** ﴾(القصص ٧٩)، فانبُذ هؤلاء وَكُن في ركب الذين رَدَّدوا: ﴿**وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ**﴾(القصص ٨٠).

إياكَ والاعتراض على حكمة الله تعالى في عطائه، فإنَّ إبليس لا يريد منك أكثر من هذا، وإياك والحسد، فان الحسد لن يريحك في الدنيا والآخرة، وإياك أن تعتقد هذا المثل وتتخذه مفهوماً يؤثر على سلوكك، واحمد الله على نعمه التي لا تحصى عليك، وقبل أن تقول "يعطي الحلاوة للي ملوش أسنان" تفكر في حكمة الخالق في الرزق وتسلح بالتقوى واقنع بما أتاك الله من فضله.

الرزق مقسوم وما من مُوسِر ... أو معسر إلا بأمـــر قد قُضـــي
وإذا أفاض الله نعمته علـــى ... عـبد، فأَول مـا تشـــاء وفـوض
واعلم بان الله عدل حكمـــه ... سيان إن غَضِبَ الحسود أو رضي

(٤٢) أخرجه مسلم عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً، انظر حديث رقم: ١٥٠٧ في صحيح الجامع.

(٤٣) أخرجه أبو داود، وذكره الألباني في السلسلة الضعيفة (١٩٠٢)، وقولنا "روي" بصيغة التمريض إشارة إلى ضعف الحديث.

إذا شُفت الناس بيعبدوا العجل؛ حِشّ وأطعمه

قال القاضي أبو يعلى في "المعتمد": ويجب إنكار المُنكر، وان لم يغلب على ظَنّه زواله، وقد سُئِلَ ذات مَرّة: الرجل يرى منكراً ويعلم أنه لا يُقْبَل منه، يَسْكُت؟ فقال: إذا رأى منكراً فليغيره ما أمكنه، وما على الرسول إلا البلاغ.

ظاهر القول أن إنكار المنكر لا يسقط ولو غَلَبَ على ظَنّه أنه لن يُقْبَل منه، و "الحشيش" أولى الناس بأكله، صاحب هذا المثل.

هل هذه وصية من ينتمي إلى خير أُمَّة أمرت بالمعروف ونهت عن المنكر وآمنت بالله؟ وهل إطعام العجل المعبود هو من قبيل: **(من رأى منكم منكراً فليُغَيّره)**[٤٤]، وقد صدق رسول الله ﷺ وهو يُحَدّث عن الزمن الذي أصبح فيه "حَشّ الحشيش" للعجل المعبود نوعاً من المعروف والمعاملة الحسنة، ففي الحديث: **(كيف أنتم إذا لم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر؟)**.

قالوا: وكائن ذلك يا رسول الله؟

قال: **(نعم والذي نفسي بيده وأَشَدّ منه سيكون)**.

قالوا: وما أَشَدّ مِنْهُ يا رسول الله؟

قال: **(كيف أنتم إذا رأيتم المعروف منكراً والمنكر معروفاً)**؟

قالوا: وكائن ذلك يا رسول الله؟

قال: **(نعم والذي نفسي بيده وأَشَدّ منه سيكون)**.

قالوا: وما أَشَدّ منه يا رسول الله؟

قال: **(كيف أنتم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟)**.

قالوا: وكائن ذلك يا رسول الله.

قال: **(نعم والذي نفسي بيده وأَشَدّ منه سيكون، يقول الله تعالى: "بي حلفت**

(٤٤) أخرجه الستة إلا البخاري، وأحمد، انظر حديث رقم: ٦٢٥٠ في صحيح الجامع.

لأوتيحنّ لهم فتنة يصير فيها الحليم حيراناً)[٤٥] .

هذا هو عصر المفاهيم المقلوبة، عصر تَقَدّم الذنب وتأخُّر الرأس، عصر الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، فلا نستغرب أن يعمنا المسخ والخسف في كل شيء، فأحرى بمجتمع ممسوخ أن يأكل ما تأكله الأنعام، بل هو أضل منها سبيلاً، ومجتمع بهذه المفاهيم كثير عليه أكل الحشيش..

عجبتُ لمبتاع الضلالــة بالهـدى ومن يشتري دنياه بالدين أعجبُ
وأعجب من هذين من باع دينــه بدين سواه فهو مـن ذَيْنِ أعجبُ

من "حش الحشيش" للعجل المعبود قد باع دينه بدنيا غيره، وهو والأنعام سواء.. بل أضل سبيلا، وهو أكثر الناس حاجة -كما قلنا- لأكل الحشيش، وإن تجنينا على اللغة واعتبرنا أن من يحش الحشيش "حشاشا" فانا لا نكون متجنين على هذا الحشاش" الذي فَسَدَ مزاجه، وذهب عقله، فطفق يهرف بما لا يعرف.

ما للأنام ؟ وجدتهم من جهلهم بالدين أشباه النعــام أو النعـم
فمجادل، وصل الجدال وقد درى إن الحقيقة فيه ليس كما زعم

مسبة الدين إلها عازة

قد بلغ -والله- السيل الزبى، وطغى هؤلاء وبغوا وعتوا عتواً كبيراً، وضَلوا ضلالاً بعيداً، "مسبة الدين الها عازة" قد أجمع العلماء على كفر المتلفظ بها ولو كان مازحاً، فمن شتم الدين أو الرسول فقد خَرَجَ من الإسلام وَمَرَقَ من الدين كما تمرق الرمية من السهم، ويترتب عليه ما يترتب على المُرتد من أحكام شرعية، فلا ينكح، وان كان متزوجاً تطلق منه زوجته، ولا تؤكل ذبيحته، وليس له ولاية على أبنائه، وإن

(٤٥) عزاه العراقي في "المغني" لابن أبي الدنيا والطبراني في الأوسط، وضَعّف إسناده، ووافقه الهيثمي في المجمع (٧-٢٨٠).

مات لا يدفن في مقابر المسلمين، ولا يصلى عليه، ولا يرثه أبناؤه. فما هي الحاجة التي "نعوزها" ولا تأتي إلا عن طريق الكفر، وهل للكفر "عازة"؟ هل يحتاج الإنسان إلى الكفر والارتداد؟ بِئست الحاجة التي لا نحصل عليها إلا بالكفر.

هذا المثل كسر الحاجز الإيماني عند الناس، يدعو إلى الجُرأة على الدين، وَيُجَوّز سب الذات الإلهية والرُّسل عند الحاجة إلى ذلك.. ما لهم كيف يحكمون؟ أم لهم كتاب فيه يدرسون؟ أو قد يقولون: "**اجت عازتك يا سبّاب الدين**"، وَسَبّ الدين أكبر مُنْكَرٍ وأعظم إثم، وبدلاً من تغيير المنكر، نَشُدّ على يديه، ونحتفظ به إلى "وقت العازة"؟ حينما نحتاج لمسبة الدين فلا نستطيع نطقها "بسبب بقايا من الرادع الإيماني، فان لدينا من "يفش خلقنا" ألا وهو "سباب الدين".

وقد يتبع المثل أو قائل المثل ، قوله بفتوى لم تخطر على بال إبليس، ولم يجرؤ أعاتي الشياطين على القول بها: "**مسبة الدين عند حاجتها تسبيح**".. يا ألطاف الله، أن تصبح مسبة الدين سُنَّة مستحبة إن لم تكن واجبة، وان ينصح الناس بان تبقى ألسنتهم رطبة بِسَبّ الدين، فلا نستغرب بعدها أن يخرج علينا من يأمرنا بِسَبّ الدين دُبُرَ كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، ولا نستهجن حينها اعتبار مسبة الدين كلمة خفيفة على اللسان ثقيلة في الميزان، وأيم الله لهي كذلك، خفيفة على لسان الذين لا يتقون الله من الكفرة المارقين وثقيلة في ميزان سيئاتهم.

وقد تسب الذات الإلهية بطريق غير مباشر، ويعتادها الناس لكثرة الترداد، رغم ما فيها من شر مستطير، فيقولون: "**يلعن هيك زمن**" أو "**دهر ملعون والْدين**"، والمؤمن أصلاً ليس باللعان ولا بالطعان قال ﷺ: (**ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذىْء**)[٤٦].

فإذا انتفت صفة اللعن عن المؤمن، فكيف بمجتمع يزعم الإيمان بالله، يُرَوّج لِلَّعن، وأي لعن؟ لعن الذات الإلهية!! سَبّ التاريخ!! وسب الدهر، والزمن والظروف!!.

وفي الحديث القدسي الجليل يقول تعالى : (**يؤذيني ابن آدم، يَسب الدهر وأنا**

(٤٦) رواه البخاري في الأدب المفرد وأحمد وغيرهما، انظر حديث رقم: ٥٣٨١ في صحيح الجامع.

الدهر، بيدي الأمر، أُقَلّب الليل والنهار)[٤٧]، وعن أبي هريرة ﷺ قال، قال رسول الله ﷺ: **(لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر)**[٤٨] ومع هذا يوصف الدهر من قبل المنتسبين لهذا الإسلام بأنه "دهر ملعون والْدَين".

حتى قولهم "**غدار يا زمن**" هو مخالفة شرعية وإثم واضح، فلا يُوصف الزمن والدهر بالغدر والخيبة، ففي الحديث القدسي: **(يؤذيني ابن آدم يقول: يا خيبة الدهر، فلا يقولن أحدكم: يا خيبة الدهر، فأنا الدهر أُقَلّب ليله ونهاره فإذا شئت قبضتهما)**[٤٩].

فالله تعالى هو المتصرف بالحوادث كما تقتضيه حكمته، وليس لأحد أن يعترض، والدهر ظرف زمني للحوادث الناجمة عن التقدير الإلهي، فلا يجوز سَبّه، ولا سَبّ أيّة جزئية من جزئياته، كاليوم، والسنة والشهر، والساعة، ومع هذا تجدُ من يجرؤ على ذلك، ويعلنها على الملأ بل ويُصَنّف كُتُباً تحوي هذه الألفاظ.

وقد تجد من يسب الحالة الجوية، كالريح والمطر والبرد والحر وهو منهي عنه بنص الحديث الصحيح: **(الريح من روح الله تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب، فلا تسبوها، وسلوا الله خيرها واستعيذوا من شرها)**[٥٠] ذلكَ أن تقلبات الجو أيضاً من حوادث الدهر أيضاً.

لم يبرح الناس حتى أحدثوا بدعاً ... في الدين بالرأي لم يبعث بها الرُّسُل
حتى استخف بدين الله أكثرهم ... وفي الـــذي حمـوا من حقـــه شغل

(٤٧) متفق عليه من حديث أبي هريرة ﷺ، انظر مشكاة المصابيح رقم (٢٢).
(٤٨) أخرجه البخاري ومسلم واللفظ له، انظر حديث رقم: ٧٣١٣ في صحيح الجامع.
(٤٩) رواه مسلم والبخاري في الصحيح مختصراً، وهذا لفظه في الأدب المفرد، انظر السلسلة الصحيحة (٥٣١).
(٥٠) عزاه التبريزي في المشكاة للشافعي وأبو داود وابن ماجه، وصححه الألباني، انظر مشكاة المصابيح رقم (١٥١٦).

قال: يا قرد بِدّي أسخطك، قال: أكثر من قرد؟!

قرأنا من الأحاديث القدسية الكثير، وعرفنا الصحيح من السقيم، ولكن ما مر علينا أن الله تعالى كَلَّمَ القرد مُهَدّداً مُتَوَعّداً، وما علمنا أن قرداً يتحدى رب السموات والأرض بلا مبالاة.

هل توجد هذه الخرافات إلا في عقول الذين ظلموا أنفسهم وجنوا عليها ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ**﴾(الصف ٧)، ﴿**مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلّٰهِ وَقَارًا**﴾(نوح ١٣)، إن القلب الذي يحمل ذرة إيمان عندما يتكلم عن الله، فإنما يتكلم بتهيب وإجلال ووقار، والمسلم يختار من الألفاظ ما يليق بجلال خالقه.

"**ساعة من ساعاته بيقضي حاجاته**" وليس لله حاجة عند العباد، وحاجة في المطر، إنما يُنَزّل من السماء ماء لأجل الإنسان، قُتِلَ الإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ، لا يزيد في مُلك الله الشكر، ولا يُنْقِصُه الكفر، ولا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية، فأيّ حاجة لله بكم؟

"**مسكين يا عبدي لا بطيق حَرّي ولا بَرْدي**".. صحيح أن الإنسان ضعيف، تؤذيه البَقَّة وَتُنْتِنهُ العرقة، وتقتله الشَّرقة، ولا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، لا يطيق شدة الحر، ولا يحتمل قوة القرّ، لكن كان على صاحب المثل أن يصوغ هذه العبارات في قالب آخر سِوى نسبته إلى الله كأنّه حديث قدسي.

ثم اسمع هذا المثل "**اشي الله بعطيه، واشي بيظل يصُك فيه تايعيمه**" فإن هذا المثل فضلاً عن أنه يتهم حكمة الله تعالى بالقصور ويعترض على تقدير الرزق، وفي ذلك هلاك و أيما هلاك، فإنه أيضاً يصف الذات الإلهية بصفات لا تليق بذي الجلال، والإكرام، ولا يوصف الله تعالى بأنه "بيظل يصك فيه تايعميه" فإن هذه العبارات لا ترقى أن تُقال لمجرد إنسان عادي، فما بالك برب الناس، ملك الناس؟!

وإذ أننا لا ننكر الأخذ بالأسباب، فإننا نُنكر الأمثال التي تصف الله بلا أدب، وتخلع على الخالق صفات لم يصفها لنفسه "اسعى يا عبدي وأنا بسعى معاك"

فَوَصْفُ الله تعالى بأنه "يسعى" خروج عن طور الأدب معه جل شأنه، ﴿**وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا**﴾(سورة الأعراف/ ١٨٠)، والسعي من صفات البشر ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ**﴾(سورة الزمر/ ٦٧).

ولا يقولن أحد معترضاً: إن قصدك راح بعيداً، والنية لا تتجه إلى ما تقول، ذلك أن الحرام لا يحتاج إلى نِيَّة، والأمة المريضة التي وَضَعَت علاجها على "الرف" وهي تعرف أنَّه العلاج الوحيد، سادرة في غيها وتخلفها، مما أورثها حتى مُجَرّد عدم التمييز بين كلام الله وكلام خلق الله، فإن كثيراً من الناس يعتقدون أن مثل هذه الأمثال، أصلها أحاديث قُدُسِيّة رُويت عن الرسول ﷺ ، لكن صِيغت بالعامية، بل قد وَصَلَ بعضهم إلى اعتبار تلك الأمثال آيات من القرآن الكريم، وقد سمعت من يقول: إن الله قال: اسع يا عبدي، ولما حاولت الاعتراض، تلطف بدليل آخر، فقال: الم يقل الله: وَجَعلنا لكل شيء سبباً؟ ولا ادري في أي قرآن وردت هذه الآيات.

ثم استمع إلى هذا المثل: "**يا رب وريني ضيقي، تأعرف عدوي من صديقي**"، وقد عَلَّمَنا الرسول ﷺ أن لا ندعو على أنفسنا إلا بخير، وان لا نتمنى لقاء العدو، والضيق لا يعتبر من الخير ولا في عداد الأصدقاء، قال ﷺ: (**لا تدعو على أنفسِكُم ولا تدعوا على أولادِكُم ولا تدعوا على أموالكم**)[٥١]. والضيق هُنا هو الفقر أو غيره مما يسوء الإنسان، والنفس البشرية تهرع ساعة العسر والضيق إلى الله تعالى، فهو الذي يقول: ﴿ **أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ** ﴾(النمل/ ٦٢). ﴿**وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ** ﴾(يونس/ ١٢).

تَعَلَّمنا من الرسول ﷺ أدعية عند الكرب والشدة والهم والحزن، ثم ترى صاحب المثل الذي يتمتع من الله بنعمة العافية والمعافاة، يتمنى من الله ويجأر له بالدعاء أن يُبَدّل هذه النعم بالنقم، لا لشيء، إلا ليميز الأصدقاء من الأعداء، وماذا ينفعه

(٥١) أخرجه مسلم من حديث جابر ﷺ مرفوعاً، ورواه أبو داود وابن خزيمة، انظر حديث رقم: ١٥٠٠ في صحيح الجامع.

اكتشافه إذا اشتد به البلاء وأفلتت عليه جميع المصائب والبلايا، إن القارئ لا يملك أمام هذا الذي بطر أو جُنّ إلا أن يدعو (**الحمد لله الذي عافانا مما ابتلاه به**)(٥٢).

فماذا يحصد أصحاب هذه الأمثال ومرددوها إلا سواد الوجه في الآخرة ﴿**وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ**﴾(الزمر/ ٦٠).. وهذه الأمثال كَذِبٌ وافتراء على الله تعالى، ووصف للذات الإلهية بما لا يليق، والمسألة جد خطيرة، والتقول على الله بغير علم خطب جسيم، قال تعالى: ﴿**إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ**﴾(النور/١٥).

الأصل في الأديان صِدق المعتقد والبعد عن كبائر قد تنتقد
ثم أداء الغرض ما قام الجَسَد وفرعه نوافل للمجتهد

قال يا رسول الله مين بتحب؟ قال: القلب وما يهوى

رَحِمَ اللهُ البخاري الذي كان يقطع الفيافي من أجل حديث، فإذا ما شَكَّ في راوٍ من رُواتِه رَفَضَ حديثه، وَرَحِم الله رجال الحديث الذين أسهروا ليلهم وكدوا نهارهم لأجل تحقيق حديث وتصحيحه أو تضعيفه، كانوا ينطلقون من منطلق الحديث المتواتر (**مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمّداً فَلْيَتَبَوّأ مَقعدَهُ من النَّار**)(٥٣)، ونحن أمام صيغة جديدة من صيغ المثل الشعبي، إذ قد لا يُجْدي المثل في قالب نصيحة، فليكن على هيئة حديث، فالحديث مُصَدَّقٌ أكثر.

والعجب العجاب أن يكون الرد المزعوم "**القلب وما يهوى**" وأكثر ما نهى عنه رسول الله ﷺ هو هوى القلب والنفس، أعاذنا الله وإياكم من الهوى وَشَرّه.

---

(٥٢) أخرج الترمذي عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: (**من رأى مبتلى فقال: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلاً، لم يُصِبْهُ ذلك البلاء**)، ورواه ابن ماجة والبيهقي بنحوه، وهو في صحيح الجامع برقم: ٦٢٤٨.

(٥٣) روى الحديث الشيخان وغيرهما كثير، وهو حديث متواتر.

ومثلما يَرِد الحديث النبوي بروايات عدة، لا يعدم المثل عدة روايات حول هذا الموضوع ، فمنها: "**قال: يا رسول الله بتحبني؟ قال: اسأل قلبك**" أو "**قال: يا رسول الله بحبك، قال: القلوب سواقي**"...

من الناس من لفظه لؤلؤ يبادره اللقط إذ يلفـظ
وبعضهم قولـه كالحصـا يقال فيلغى ولا يـحفظ

وهذه الأمثال كالحصى، ليس إلى هضمها سبيل، وليس على صحتها دليل، كلام مجج، ولفظ سمج، وقول مبتور، فيه الويل والثبور. أما الهوى، فسبيله وعر، وَبَرْدُهُ حَرّ، وَسِرَّهُ جَهْر، وَبَرَّهُ بَحْر، وَيَومَهُ شهر، وشهره دهر، وإذا حكم الهوى استتر العقل. فيقود النفس إلى ما يُعاب، وإن أطعتَ هواكَ قادكَ إلى الهوان أو الهلاك.

نون الهوان من الهوى مسروقة فإذا هويتَ فقد لقيت هوانا

وقد يُوصِل الهوى إلى اتخاذه إلهاً، ألم يقل الله تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ**﴾(سورة الجاثية ٢٣)، وآيات القرآن الكثيرة تنهى عن إتّباع الهوى، وتفيد أنه سَبَبٌ للزّيغ والضلال، وفي المقابل عَلَّقَت الآيات على مخالفة الهوى الخير الكثير، قال تعالى: ﴿**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى**﴾ والهوى يُؤدي إلى الهاوية.

إن رسول الله ﷺ الذي يزعم صاحب المثل انه قال: "**القلب وما يهوى**" كان ينهى عن إتّباع الهوى قال ﷺ: (**ثلاث منجيات وثلاث مهلكات...**) وذكر المهلكات فقال: (**وأما المهلكات: فَهَوىً مُتَّبَعٌ، وَشُحّ مُطاع، وإعجاب المرء بنفسه، وهي أشدهن**)(٥٤) وروي عنه ﷺ قوله: (**إنّ أهل الأهواء أهل الضلالة**)(٥٥).

وفي مصابيح السّنة: (**أخوف ما أخاف على أمتي اتباع الهوى، وطول الأمل، فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فَيُنْسِي الآخرة**)، ولقد فهم السلف الصالح أنه ما من سبيل إلى الفلاح في الدنيا والآخرة إلا بمغالبة الهوى

(٥٤) رواه البزار وأبو نعيم والبيهقي في الشعب، قال الألباني: حسن بشواهده، انظر تخريج المشكاة (٥١٢٢).
(٥٥) هذه رواية الدارمي.

ومعالجة الشهوة، وقد قيل "آفة الدين الهوى" والعاقل من مَلَكَ نفسه وألجم شهوته وعصى هواه.

فالهوى مدمر، إذا استكان له الإنسان عَبَدَهُ من دون الله، وإذا تَسَلّط الهوى عليه قاده إلى المهالك، فقد يرتكب الجرائم في سبيل هواه، وقد يسرق ويزني، وقد ينتحر أو يقتل غيره، وكُلّما كَبَحَ الإنسان جماح هواه سما وارتفع، ولأن رسولنا ﷺ هو النموذج الكامل لسمو الأخلاق وعظمتها، فقد بَيَّن لنا أن طريق الخُلُق العظيم بأقواله وأفعاله، ومن أبرزها مخالفة الهوى، فهل يُعقل بعد هذا أن يُشَجّع ﷺ هوى القلب؟؟.

خالف هواك إذا دعاك لريبةٍ فَلَرُبَّ خيرٍ في مُخالفة الهوى

رِزق الهُبل عَ المجانين

الرزق من أكثر ما يُشغل بال ابن آدم، من أجله يَركب الحرام، ويخترق الشبهات، وينشغل عن العبادة في كثير من الأحيان، ويبعد عن ربه جل جلاله، وكان له المساحة الواسعة في تراث الأمم، فَخَرَجَت النظريات الاقتصادية تحذر وتنذر، وتنصح وترشد، وأصبح الاقتصاد أو المال هو المعبود لكثير من العبيد. وقد نشط الكتاب والشعراء والقصاصون، وتحرك التجار والعمال والصناعون، كل يبحث عن طريق جديد، وأسلوب حديث، وسبيل مبتكر، إلى كسب كثير، وغنى عريض. وربما اصطدموا إثناء هذه الحركة غير المنظمة، بنظام السماء، فنشبت الحروب، وسالت الدماء وزهقت الأرواح.. من اجل المال. فكان لا بد لهذه النفس البشرية من أن يكبح جماحها، وخير علاج لها هو تقنين رب العباد ﴿ **أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾(سورة الملك١٤).

ومسألة الرزق من المسائل التي أقسم الله بذاته، على أنها مُقَدَّرَة للعباد فقال

تعالى: ﴿**وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ**﴾(سورة الذاريات)، وكان من أسماء الله الحسنى "الرَّزاق"، لهذا أجمع الذين يعقلون أن الرزق بيد الله وحده، تكفل برزق المخلوقات، فهو القائل: ﴿**وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا**﴾(هود ٦).

انظر إلى فطرة الطفل السليمة الصحيحة الخالية من شوائب الطمع وطول الأمل، إذ يعتقد أن والده هو الذي يرزقه، وهو بهذا الاعتقاد خالي البالِ من هذه الناحية، لا يُفَكّر كيف يجمع، وكم يجمع، ما دام الرزاق -الأب في نظره- موجوداً، هذا اليقين أسلمه إلى حضن الطمأنينة والقناعة، فلا يأبه برزق غَدٍ، ولا يُلقي بالاً للتملك والكنز، فيا ويح الإنسان الذي تعرف على خالقه الحقيقي، الرزاق لكل الخلائق، الذي لاستنفذ خزائنه، ولا ينقص من ملكه لو أعطى كل إنسان مسألته، هذا الإنسان يزعم الإيمان بأن رزقه مقدور من لحظة ميلاده إلى موته وقد تكفل الله به، ومع هذا ينتابه الهم والتفكير في الرزق، ويندفع إلى اختراع أساليب ملتوية ليحصل على رزق هو مقدر له، وبالتالي يخترع تراثاً قوامه قصص شعبية وأمثال هي في حد ذاتها نظريات مبررة لهذه التصرفات، ثم يدعون الإيمان بالرازق، ويزعمون الاعتقاد بالرزاق، فهم ﴿**يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ**﴾(سورة آل عمران ١٦٧).

وكل ما دب على الأرض من صغير أو كبير، أو حقير أو عظيم، رِزْقَهُ على الله تعالى، روي أن سليمان الحكيم أُعطي فرصة وفسحة ليرزق ما يقع تحت ملكه، فعجز عن إطعام ثلاثة حيتان. وأوحى الله إلى موسى: **(يا موسى كن واثقاً من رزق مقسوم ما دامت خزائني مملوءة، وخزائني مملوءة لا تنضب)**.

فلا معنى، ولا مبرر أصلاً لمثل هذه الأمثال التي تَنُمّ عن حسد مبين وحقد دفين، والمسلم المؤمن لا يسخط من قضاء الله وحكمه، ولا يتبرم بعدل قسمته، بل إذا نظر إلى من هو دونه في الرزق تمنى له الخير، وساعده واخذ بيده، وإذا نَظَرَ إلى من فوقه قال بإيمان ﴿**ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾(سورة الجمعة ٤).

والمؤمن بهذه الأمثال هو في دوامة الجزع والطمع والهلع، أو الحسد والكمد مَثَله في ذلك مثل الذين اعترضوا على اختيار الله محمداً ﷺ للرسالة ﴿**وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ**

﴿**هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ**﴾(سورة الزخرف/٣١)، ذلك أن من يقول "**رزق الهبل على المجانين**" يُفَكّر بنفس الطريقة الذي فَكَّرَ بها كبراء قريش، ومع هذا فإنه إن كان عاقلاً أو مجنوناً فَرِزقه في الحالين على الله.

ورزق الخلق مقسوم عليهم مقادير يقــدرهــا الجليل
فـلا ذو المـــال يــرزقــه ولا بالمـــال تقتسم العقول

الحج حج، والغمزة العتيقة فيه

أركان الإسلام خمس: الشهادتان، والصلاة، والزكاة، والصيام والحج، بني الإسلام عليها، فهي ركائز الإسلام، وبدونها لا يكون للإسلام بناء، ومن يدّعي الإسلام دون إقامة أركانه فهو كاذب.

فهل سَلِمَت هذه العبادات من أمثالنا الشعبية؟.. كلا، فإنّ هناك أمثالاً تصدت لكل من تسول نفسه بإقامة هذه الأركان أو بعضها.

"**يا مزكّي حالك بيبَكّي**" فقد نَقَصِ مالك، وهاأنت محتار كيف تعوضه، بعد أن وقعت في ورطة اسمها "الزكاة" كيف ينمو مالك، كيف تصبح العشرة مئة، والمائة ألفاً ما دُمت تُخرج كل عام ما ينقصها، تكد وتتعب، وتجمع وتكنز حتى إذا جاء آخر العام أُمرتَ باقتطاع جزءٍ من مالك.

"**الحج حج والغمزة العتيقة فيه**" هكذا كل أو على الأقل معظم الذين أدوا فريضة الحج، ذهبوا ببعض الدِّين ورجعوا بدونه، وإن لم تُصَدّق فاستقرئ الواقع، فهذا العامل أو الموظف ما عرف الغش والتكاسل والخمول إلا بعد هذه الفريضة، وهذا المسؤول ما عرف الظلم والتعسف إلا بعد أداء هذا الركن، وهذا تاجر من التجار، ما عرف الاحتكار، ولا غلاء الأسعار، إلا بعد أن زار تلك الديار ، "**صدق اللي قال**"...: "**راح قَدّوم ورجع منشار**".

"**صوم وصلي رزقك بيولي**"... انظر إلى المصلين والصائمين من"**دراويش**" المساجد، في فقر وخمول، ومسغبة وكسل، يتركون أعمالهم لينقروا نقرتين، ويَدَعُون إشغالهم ليتفرغوا للجوع والعطش في رمضان، "**شو شفت منك يا رمضان غير الجوع والعطش**" وقد لا يقبل ذلك منهم، فمعظمهم يصلي رياء، ومنهم من "**يصلي الفرض ويخزق الأرض**"، ولن يصطلح حال هذه الأمة إلا بما صلحت به أمم الغرب الأوروبية، التي حاربت الكنيسة ونبذت الدين جانباً، وتفرغت للعلم والعمل، ثم يختم هذا "الناصح" بكلمة جامعة شاملة: "**شو هالدين المتين**" وقد يَدُسّ في ثنايا حديثه حديثاً نبوياً: "**الدين المعاملة**" و "**الأصل القلب الأبيض**".

يكاد المرء يُصَفّق إعجاباً لهذه الأمثلة لولا أن التصفيق محذور شرعاً، إذ أنه في كلمات موجزة بليغة قصيرة قَوَّضَ أركان الإسلام، ولم يبق لنا إلا قلباً أبيضاً نتعامل به بين الناس -بَيَّضَ الله عينه- أما الصلة مع الله فليس لها لزوم ما دام الله غفوراً رحيماً، و"**ليوم الله بيفرجها الله**" و "**ربك رب قلوب**".

وهكذا يتساوى من يقوم الليل، مع الذي يسهر في "كباريه"، وتتماثل من تمتنع عن الطعام للريجيم، وللمحافظة على القد الممشوق مع الصائمة في رمضان، ويتشابه من يرهق عيونه أمام الأفلام الداعرة، بمن يتعب عينيه في قراءة المصحف.

والذي يذهب إلى شواطئ البحار للنزهة والاستجمام، كالذي يذهب لمكة حاجاً، ومن يُتلف أمواله لتجار الأعراض والخنا كمن يدفع صدقاته لفقراء البلد ومساكينه... هذا هو منطق مسيلمة الكذاب وسجاح، ﴿**أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لا يَسْتَوُونَ**﴾(السجدة ١٨)، الصلاة والصيام من دلائل التقوى وآثارها، والتقوى مجلبة للرزق، قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ**﴾(سورة الطلاق)، والصلاة والصيام صورتان من صور الاستغفار، والاستغفار مجلبة للزرق أيضاً، قال تعالى: ﴿**فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا**﴾(سورة نوح)، هذه نصوص قرآنية تُكَذّب من زعم "**صوم وصلي رزقك بيولّي**".

والمزكي حاله يَسُرّ ويفرح، فان الله تعالى يفرح بعمل عبده، والمجتمع يفرح بتصرفات أفراده الفاضلة، والفقراء يفرحون لهذا التكافل، وقد تَكَفَّل الله بالرزق ومضاعفته لمن ينفق في سبيله، وَكَذَبَ المثل وَصَدَقَ رسول الله ﷺ: (**ما نَقَصَت صَدَقَةٌ مِن مال**)(٥٦).

والرزق بيد الله، ففي الحديث القدسي: (**عبدي، انفق أُنفق عليك**)(٥٧)، و(**اللهم أعط مُنفقاً خلفا، وأعط ممسكاً تلفاً**) هذا دعاء الملائكة لمن ينفق في سبيل الله، كما أخبرنا ﷺ، فهل نُكَذّب هذه النصوص ونُصَدّق ما قاله مأفونٌ أحمق؟ و(**الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة**)، وإن العبد إذا رفع أَكُفَّ الضراعة لمولاه، وعانى من المشاق، وتحمل المصاعب، وفر إلى الله عارياً إلا مما يستر عورته، حافياً كاشفاً رأسه، بذل وقد قرأ قول الله تعالى: ﴿ **وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ** ﴾ فبادر وغادر وَصَدَعَ وَتَضَرَّعَ: لبيك اللّهُمَّ لبيك.. فكان حقاً على الله تعالى أن يقول له: لبيك عبدي وسعديك.

أما التاجر الفلاني والموظف العلاني فليسوا حُجَّةً على المسلمين، ولا دليلاً يُنْصَب على العابدين، ولا برهاناً يُسَلَّط على القائمين والركع السجود..

نُرَقّع دُنيانا بِتَمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولا ما نُرَقّعُ

بِدَّك تقيم الدين في مالطا؟

وما المانع من ذلك؟ هل أهل مالطا ليسوا من نسل آدم؟ أم أنَّهُم أشخاص قادمون من المريخ؟ أليسوا مَجْبُولين على فطرة الإسلام؟ و(**كُلّ مولودٍ يُولد على الفطرة**)(٥٨) ولم يستثن من ذلك أهل مالطا أو غيرها.

(٥٦) رواه مسلم والترمذي من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً.

(٥٧) متفق عليه، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٥٨) متفق عليه من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً، انظر مشكاة المصابيح (٩٠).

ومهما كانت مالطا بعيدة.. سواء بعيدة عن الإسلام، أو بعيدة مسافة، فإنَّ الصحابة عندما حملوا هذا الدين ما نظروا هذه النظرة، فمالطا مثل السِّند، وبُخارى، وَسَمَرقند.

أو لرُبما خَتَمَ الله على قلوب أهل مالطا، فما عادَ ينفع فيهم وعظ ولا إرشاد؟ فلن يكونوا على آية حال أكثر طُغيانا من عادٍ وثمود، ورغم ذلك بعث الله إليهم من يدعونهم إلى التوحيد وعبادة الحميد المجيد، وأرسل إليهم من يقيم الدين بينهم.

هذا المثل المحبط ينهي من التعرض لرأي الأغلبية ولو كان هذا الرأي خطأ، وَرُبّما خرج المثل عن طور النصح إلى طور التوبيخ والتقريع.

"**أنت حامل السِّلَّم بالعرض**" ، وقد يوافقك أن الأغلبية لا تعلم ولا تعقل، وقد تكون على شر، لكنه رغم اعترافه، فإنه -كناصح- حفاظاً عليك، يوجه لك نصيحة جديدة "**ابعد عن الشر وغني له**" ولا أدري ما نوع الغناء الذي يريده المثل، هل هو غناء تشجيعي، أم غناء نفاق، أم غناء عدم مبالاة، وهو على كل الوجوه غناء مرفوض.

فإن لم تستمع لهذه النصائح و" **ركبت راسك**" وَحَمَلْتَ سُلَّمك بالعرض، وأردت أن نقيم الدين في مالطا، فقد ظَلَمتَ نفسك، "**واللي بيده الله يزيده**" و "**جاجة حَفْرَت على راسها عَفْرَت**" فأنت تستحق ما جرى لك "**تستاهل**" لأنك لم تستمع للنصيحة، وما علمت أن "**الكف ما بيلاطش (بيناطح) مخرز**" "**والله ما شافوه بالعقل عرفوه**".

۞ ۞ ۞

لو آمن موسى عليه السلام بهذه المقولات والأفكار، لعاش حياة البذخ، حياة رغدة يتقلب في الديباج والحرير "**بين الكاس والطاس**"، في نعيم مقيم بين الجواري الحسان، وَلَرُبَّما ورث عرش مصر، وأصبح فرعوناً، يمتلك رقاب الشعب، لكنه -عليه السلام- كان يتطلع إلى السندس والإستبرق، والى ﴿**سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ**﴾، كان أكثر طموحاً من مجرد التمتع بنعيم زائل، كان يرنو إلى سدر مخضود، وطلح منضود، وكان يطمح في قاصرات

الطرف، فَفَضَّلَ تراب الجنة المسك والزعفران، على تبر الأرض، وكان الله معه، ومن كان الله معه فمن عليه؟ ونجحت الكف في "**ملاطشة**" اعنف "مخرز" في التاريخ، مخرز أكبر صنم بشري.

وعرض على حبيبنا محمد ﷺ المُلك والغنى والجاه والسؤود، فَرَفَضَها وتحدى فراعنة قريش، وأقام الدين بين أناس ما عرفوا الدين إلا عن طريق "٣٦٠" صنماً ليقربوهم إلى الله زلفاً.

وهذا عمر بن الخطاب ﷺ لخوفه على الإسلام والمسلمين كان يرى مهادنة المرتدين، ويرى انه ليس من المصلحة "حَمْلُ السُّلم بالعرض"، فما كان من أبي بكر الصديق ﷺ إلا أن قال بعنف:

- يا ابن الخطاب، أتكون جباراً في الجاهلية خواراً في الإسلام؟

إن أبا بكر ﷺ لو آمن بمثل هذه المقولات، لاتسعت رقعة المرتدين حتى شملت المدينة المنورة- بل إن عمر ﷺ نفسه عندما رأى شرور الجيوش الرومية والفارسية من كل حدب ينسلون لم يخطر بباله أن "**يبعد عن الشر ويغني له**".

إنَّ من يقول هذه الأمثال ويعتقدها ما كانت نعمة الإسلام لِتَصِلَهُ، لو لم يقم أناسٌ من سَلَفِهِ الصالح بالعمل فعلا، لإقامة الدين في مالطا.

إنَّ أُمة بهذه المفاهيم قد نَخَرَها المرض عاجزة عن صنع أي شيء من شأنه أن يرفعها، ألم يقل الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾(الرعد ١١)؟ ويزداد استغرابك واستهجانك عندما ترى أصحاب هذه المفاهيم يرفعون أيديهم إلى السماء يطلبون العزة والسؤدد، كأن الله تعالى سَيُغَيّر سُنَنَ هذا الكون وقوانينه ونواميسه من أجل سواد عيونهم.

إذا مـا شئتم دعـة وخفضاً ... فعيشوا في البرية خاملينا
ولا يعقد لكم أملٌ بِخَلْـقٍ ... وبيتوا للمهيمن سائلينـا

يوم عَ الدنيا ولا سَنَة تَحْتها

الدنيا مكان محبب للنفس، فإنها تجد فيها لذائذها ورغباتها، والدنيا حديقة تحوي الزهور والأشواك، السعادة والشقاء، الفرح والحزن، الصحة والسقم، الغنى والفقر، العلم والجهل، العمل والكسل، النجاح والفشل، يدخل الإنسان إليها عارياً، ويخرج عارياً، لا يأخذ من زهورها أو أشواكها شيئاً، هذه هي الدنيا، وصفها الله تعالى بقوله: ﴿**وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾(العنكبوت ٦٤)، وأكثر الناس جَهِلُوا الدنيا والآخرة؛ فعاش فيها عيشة الأنعام، يعمل نهاره وينام ليله، يأكل ويتمتع كما تأكل الإنعام، هؤلاء هُم شَرُّ الناس كما وصفهم الرسول ﷺ فقال: (**إن شَرَّ الناسِ مَنْزِلَةً عند الله يوم القيامة عبد اذهب آخرته بدنياه**)[٥٩]، أصحاب المثل القائل: " **يوم على الدنيا ولا سنة تحتها**" يكرهون باطن الأرض لأنهم يَكرَهُون لِقاءَ اللهِ بسبب ذنوبهم الكثيرة، ولأنهم تَمَسَّكُوا بالدينار والدرهم وانغمسوا في الملذات فلا يَوَدُّون تركها، ولأنهم زَرَعوا الدنيا ويعرفون ماذا سيحصدون في الآخرة، ولأنهم عَمَّرُوا الدنيا وخَرَّبُوا الآخرة، وسوف يفارقون الدنيا شاؤوا أم أبوا، كَرِهوا أم أحبوا، ولن يؤخذ رأيهم قبل أن تُؤخذ أرواحهم.

قال أحد الصالحين: كيف يترك الدنيا من تأمرونه بترك الدينار والدرهم؟ وقال آخر: يا بني لا تدخل في الدنيا دخولاً يَضُرّ بآخرتِك، وقال آخر: الدنيا كالماء المالح الذي لا يزداد شاربه إلا عطشاً، وروي عن المسيح عليه السلام قوله: (ويلكم يا عبيد الدنيا، من أجل نعمة زائلة، وحياة منقطعة تفرون من الله وتكرهون لقاءه، فكيف يحب الله لقاءكم وأنتم تكرهون لقاءه؟).

والرسول ﷺ يَرُدّ على أصحاب "**يوم على الدنيا ولا سَنَة تحتها**" فيقول: (**من أحب لقاءَ الله أحبَّ الله لقاءه، ومن كَرِهَ لقاء الله كَرِهَ الله لقاءه**)[٦٠].

---

(٥٩) رواه ابن حبان في صحيحه، وحَسَّنَه الألباني في السلسلة الصحيحة ٣٦٤.

(٦٠) رواه الشيخان، من حديث عبادة بن الصامت رضي مرفوعاً.

وقد يُقال هذا المثل في معرض الرد على من يعظ بترك اللذائذ المحرمة، وكبح جماح الهوى فَيُقال له: "**يوم على الدنيا ولا سَنَة تحتها**" أو" **ليوم الله بيفرجها الله**" وهو حَثٌّ واضحٌ على أَلْعَبّ من هذه الدنيا حتى الثمالة، واستغلال كل دقيقة من العمر لخدمة الجسد، قال الخيام:

ما أضيعَ اليوم الذي مر بي من غير أن أهوى وأن أعشقا

وإذا ما وَصَلَ القلب إلى هذه الدرجة من التعلق بحب الدنيا، فلا سبيل إلى الموعظة ﴿**سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾(سورة البقرة٦)، ومن جعل الدنيا أكبر همه ومبلغ علمه فقد ثكل نفسه، قال ﷺ: (**ومن كانت الدنيا اكبر همه جَعَلَ الله فَقْرَهُ بين عينيه، وفَرَّقَ شَمله ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّرَ له**)[٦١]، وَوَصَفَ أحدهم الدنيا فقال: "ما شَبَّهْتُ الدنيا إلا كَرَجُلٍ نائم فرأى في منامه ما يكرهه وما يحبه، فبينما هو كذلك انتبه".

وَمُحِبّ الدنيا يتعذب بحبه، فإنه يُعَذّب وَيُنازع ويكابد من أجل تحصيلها ، قال تعالى ﴿**فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ**﴾(التوبة ٥٥).

وَمُحِب الدنيا مُصاب بالوهن، وقد تخوف رسول الله ﷺ من نزول الوهن بالأمة، ولما سُئِلَ عن الوهن قال: (**حُبّ الدنيا وكراهية الموت**)[٦٢]، والله تعالى ينهى المؤمن عن الوهن ﴿**وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** ﴾(آل عمران ٣٩).

هذه هي الدنيا، حلالها حساب، وحرامها عقاب، ومتشابهها عتاب، والآخرة خير وأبقى، ﴿ **فَأَمَّا مَنْ طَغَى (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى** ﴾(سورة النازعات).

لكن لا يعني ما ذَكَرْنا الانسلاخ عن الدنيا، ولا يَفْهَمَنَّ أحد أننا ندعو إلى ترك ما خَلَقَ الله لنا في هذه الدنيا، فإنَّ الله سخرها للعباد، ولكن بالحلال، وبلا إسراف، والعاقل من استغل هذه الحياة الدنيا واستثمر ما فيها للآخرة، يصيب من

(٦١) أخرجه الترمذي وغيره، انظر حديث رقم: ٦٥١٠ في صحيح الجامع.
(٦٢) أخرجه أبو داود و صححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٩٥٨.

الدنيا ما يريد به الآخرة وينال الجنة.

قال الحسن: نعمت الدار الدنيا كانت للمؤمن، ذلك انه عمل قليلا واخذ زاده منها للجنة، وبئست الدار كانت للكافر، وذلك أنه ضَيَّع لياليه وكان زاده منها إلى النار، فالدنيا دار ضرورية للتزود منها وهي دار امتحان وابتلاء فكن فيها كما قال ابن عمر رضي الله عنهما كأنك غريب أو عابر سبيل. فَذَمّ الدنيا راجع إلى أفعال بني آدم فيها لأن غالبها واقع على الوجه الذي لا تحمد عقباه.

فَكّر في الوجود بعين فِكْرٍ ... ترى الدنيا الدنية كالخيال

ومن فيها جميعاً سوف يفنى ... ويبقى وجه ربك ذو الجلال

بَخْت الشّاطر خَاطِر

أَخَذَت مسألة "البخت"أو "الحظ والنصيب" المساحة الكبرى في تراث الناس، قَصَصهم، وحكاياتهم وأمثالهم، وكذا أمثالنا الشعبية كان للحظ فيها "حظ" كبير، وللبخت فيها بخت وفير، وللنصيب فيها نصيب كثير، من ذلك قولهم: "**بخت الشاطر خاطر**" والشاطر -في لُغة العامة- هو الحذق النبيه المتقن لصنعته، ومعنى خاطر: أي ضائع، فليس للحذق النبيه حَظّ، وهو في معنى "**سَبِعْ صنايع والبخت ضايع**".

وقد يَصِلُ الاعتقاد بمسألة "الحظ" إلى التشاؤم والتطير، و(**الطيرةُ شِرْكٌ**) كما قال ﷺ(٦٣)، فلا يصح للمسلم أن يَصُدَّنَّهُ شؤم وتطير، أو يُثْنيه عما نوى فعله.

"**اشتغلنا بالكفان بطل حدا يموت**" والموت ليس له علاقة من قريب أو بعيد بعمل الناس وصنعاتهم، ولا تربط الأجل أيَّة رابطة، بوظيفة الإنسان، بل قد يَصِلُ الأمر بالناس إلى ما يُحْكَم عليهم بالكفر خاصة في الأمثال التي تتناول ملك الموت،

(٦٣) رواه أبو داود والترمذي وصححه الألباني في صحيح الترغيب ٣٠٩٨.

كقولهم "**عزرين في إجازة**" أي "عزرائيل" والمقصود ملك الموت(٦٤).

والشؤم باب من الأبواب التي يدخل الشيطان من خلالها إلى القلب فيفسده، والأمثال التي تتكلم عن البخت والحظ ما جاءت إلا من جهل الناس بروح هذا الدين.

"**قيراط بخت ولا قنطار شطارة**" ، "**على بخت الحزينة سكرت المدينة**" ، " **السَّعِد وَعد**" ، " **اجت الحزينة تفرح ما لقتلهاش مطرح**" ، "**بختي وبعرفه**".

فهذه أمثال مُحبطة، تدعو للكسل، والتخاذل والـجُبن، ذلك أنهم ما فهموا ما هو الحظ وما هو النصيب، ولقد كان لقارون حظ عظيم، ولم يكن قارون غبياً أو أبلهاً مغفلاً، بل كان حَذِقَاً "شاطراً" وكان حظه عظيماً ﴿**قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ**﴾(القصص/ ٨٠)، والحظ هو ما يحظُّهُ الله تعالى للعبد من خير، أو هو اسم لما يرتفع به المحظوظ، وقد ارتفع قارون بما عنده من مال حَظَّهُ الله تعالى له، ولأن المال محبوب للنفس، بدا في أَعيُن الناس أَنَّه رمز الخير، لهذا ترى القرآن الكريم عبر عن هذا المعنى ﴿**وَإِنَّهُ لِـحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ**﴾(العاديات/ ٨)، والخير هنا المال، فما ناله قارون بدا في أعين الناس قصيري النظر "خيراً وَحَظَّاً عَظِيماً".

"الحظ" أو "البخت" لا يُحْصَرُ في قلة المال أو كثرته، فقد في يكون الصحة، وقد يكون في تجنب المصائب، وقد يكون في الدِّين ﴿**وَمَا يُلَقَّاهَا إِلّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ**﴾(سورة فصلت/ ٣٥).

فإن كان "**بخت الشاطر خاطر**" في المال، فانظر إليه من زوايا أخرى، قد تجده غنياً بالعلم أو الأخلاق، أو الدِّين، وقد تجد أن الله أنعم عليه بنعم أغلى من المال، فَلِمَ حَصَرنا بخت الشاطر في المال؟ أليست الزوجة الصالحة من النعم؟ أليس إنعام الله بالبنين خير من المال؟ إن رَبَّك يَمُدُّ هؤلاء وهؤلاء من عطائه، فالحظ لا يحصر في المال

(٦٤) "عُزرين" تحريف عاميّ لكلمة "عُزرائيل"، ولم يرد اسم "عزرائيل" في القرآن ولا السنة الصحيحة، وإنما ورد "ملك الموت".

وحده، بل كل ما يرزقه العبد فهو مما حظه الله له، وما قدره له، والاعتراض على قدر الله تعالى هو اتهام في حد ذاته لحكمة الله بسوء التقدير وعدم العدل.

إن الحظ والبخت والنصيب هو باختصار ما قَدَّرَهُ الله للعبد في الدنيا والآخرة، فإذا ما أوتي احدهم حظاً من الدنيا فلا يعني ذلك بحال رضا الله عنه، فقد يكون استدراجاً كما حصل لقارون وغيره، فإن الله يعطي الدنيا لمن أحبَّ ولمن لم يحبُّ، ولا يعطي الدِّين إلا لمن أحبَّ ، فادع الله تعالى أن تكون من أصحاب الدِّين فذلك الحظ العظيم الحقيقي.

وقد يُفْهَم "البخت" بمعنى ما غاب عن الإنسان، ولهذا انتشر الدجالون من المشعوذين وقارئات الكف والفنجان وغير ذلك للنظر في "بخت" الإنسان، وهذا أيضاً منهي عنه بنص الحديث الصحيح (**من أتى عرافاً فَسَأَلَهُ عن شيء فصدقه؛ لم تُقْبَل له صلاة أربعين يوماً**)[٦٥].

فافهم ما فهمه العقلاء من ذوي التجارب من الحكماء، وتفرس في هذا الأمر واعلم أن كل ما يُصِيب الإنسان مُقَدَّرٌ من الله تعالى.

شكا الجد الذي عثرا وذم الدهر مبتذرا
وقصـــر في مساعيـــه فبات يُعاتب القَدَرا

(٦٥) رواه مُسلم وأحمد وغيرهما، انظر حديث رقم: ٥٩٤٠ في صحيح الجامع.

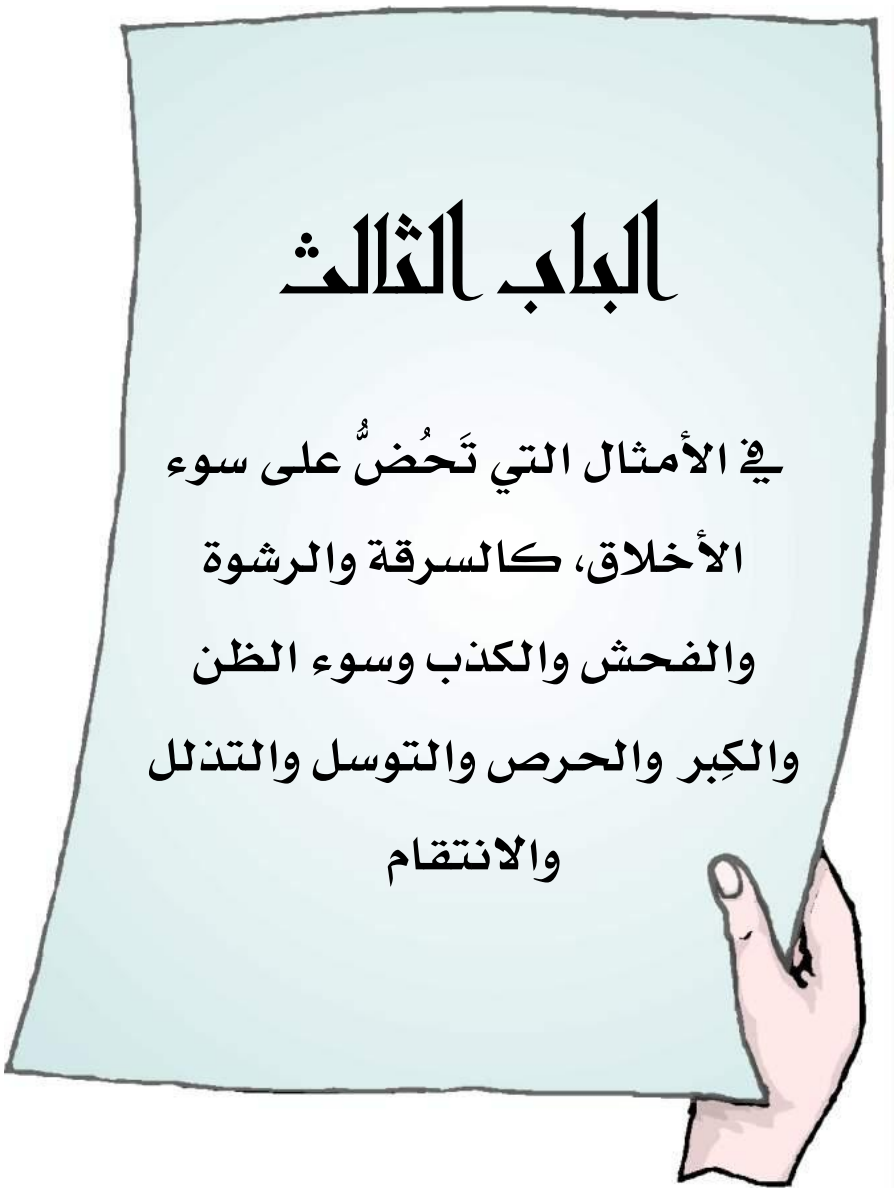

الباب الثالث

في الأمثال التي تَحُضُّ على سوء الأخلاق، كالسرقة والرشوة والفحش والكذب وسوء الظن والكِبر والحرص والتوسل والتذلل والانتقام

اسرق النذل ولا تشحده

عندما ينحرف الناس ويتعارفون على مفاهيم مقلوبة ويسمون الأشياء بغير مسمياتها، يقلبون الحق باطلاً والباطل حقاً، ينكرون المعروف ويعرفون المنكر، عندما يعدُّون المكر من الكياسة، والتحايل لأكل أموال الناس بالباطل من الذكاء، وظلم العباد من صفات النبهاء، عندما تراهم أصحاء في الظواهر، أمراض في البواطن، ظواهرهم ظواهر الإنس، كلها مودة وأنس وما فيهم تحت الثياب إلا وحوش ضارية وذئاب، فلا تعجب إن تسلط العباد عليهم، ويمدوا بطشهم إليهم، ووصولنا إلى ما وصلنا إليه من حال مزر إلا بمفاهيمنا المقلوبة.

السرقة عمل وضيع، وفعل شنيع، لا ينبئ عن نفس سوية، ولا يكشف عن حسن طوية وهذا المثل ينطوى على خبث نية "**اسرق النذل ولا تشحده**".

المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه، والسرقة اعتداء وإيذاء وظلم وبغي، ولا يسود الأمن ويحفظ النظام، و'تحمى الفضيلة، وتصح العقول والأوهام، وتُصان الحقوق والأموال في مجتمع اعتبر سرقة النذل واجباً مقدساً.

يقول الرسول ﷺ: (**خَيْرُ المسلمين مَنْ سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده**)[٦٦] قال شُرّاح الحديث: أنه لا يُستفاد من هذا الحديث إباحة أموال الكفار وأعراضهم بغير قيد أو وجه شرعي، فكيف بالنذل؟ لا تخن من ائتمنك ولو كان نذلاً، ولا تُعامل بالشر رجلاً ولو سَفُلَت أخلاقه، لأن ذلك غاية الفساد، والله يقول: ﴿**وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**﴾(سورة القصص/ ٧٧).

النذل هو كل إنسان يزدرى في أخلاقه أو عقله، أو: الخسيس المحتقر في جميع أحواله، أو الذي سَفُلَت أخلاقه، وعند العامة: النذل ضد الشهم. وهذه الصفات ليست عذراً أو مُبرراً لسرقته، ونستدرك فنقول : إننا لا نُدافع

(٦٦) أخرجه البخاري ومسلم واللفظ له، انظر حديث رقم: ٣٢٨٦ في صحيح الجامع.

عن الأنذال، ولا ندعو إلى إعلاء شأنهم واحترامهم، ولا يختلف اثنان على أن الإسلام دعا إلى مكارم الأخلاق.

وإذا كُنّا ننعى على النذل نذالته، ونعيب عليه سفالته، فانه لا تستقيم دعوتنا هذه إذا فعلنا ما يفعله النذل، والسرقة نذالة، وكون النذل "نذلاً" لا يبرر أن "نتناذل" -إن صح التعبير- ولا نقابله بالنذالة، فان فعلنا، فإنّا وهو في ميزان واحد، وتحت وصف واحد، وليس من الأخلاق الكريمة أن ننهى الناس عن عيب هو فينا، يقول الشافعي رحمه الله:

إذا جاريتَ في خلق دنيئاً فأنتَ ومن تُجاريه سواء

والسارق ملعون بِنَصّ الحديث: (**لعن الله السارق، يسرق البيضة فتقطع يده، ويسرق الحبل فتقطع يده**)[٦٧] أي أنه مقابل شيء حقير تافه يُضَحّي بعضو عزيز من أعضائه، والمسروق من متاع الدنيا مهما ارتفعت قيمته، فإنه يبقى تافهاً، وسرقة الشيء التافه من النذل التافه وقوع في تافهين اثنين.

إذا فعل الفتى ما يَنهَ عنه فمن جهتين لا جهة أساءَ

۞ ۞ ۞

اطعم الثِّم تستحي العين

المثل - قُلنا- كشأنه بين باقي الكلام، قد يكون صالحاً فَيُحَبّبنا إلى الخير، ويُشوقنا إلى إتيانه، وقد يكون فاسداً فَيُشَوّش وجداننا ويخلخل شخصيتنا، وقد يقضى على التوازن عندنا، وتأثير المثل يختلف من شخص لشخص إلا أن له تأثيراً كيفما كان، وأخوف ما يخاف المرء على المجتمع أن يُصبح أشبه شيء بالإنسان الآلي، بلا عقل ولا قلب، يأتمر بما يُملى عليه، ويقوم بما يُطلب منه غير معترض ولا مقاوم.

وَرَدَّةُ الفعل في تصرفات الإنسان أمام مَثَل يطرق سمعه ليل نهار مَحتومة

(٦٧) متفق عليه من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً، انظر مشكاة المصابيح ٣٥٩٢.

وحاصلة لا محالة، إذ أن المثل يترك انطباعاً أولياً أو خطوطاً لعمل مستقبلي.

"**اطعم الثم تستحي العين**" لا أحد يَشُكّ أن هذا المثل دعوة صريحة للرشوة، والرشوة احتيال بوسيلة حرام للوصول إلى غاية من غايات الفرد الدنيوية، والكل متفق على حرمة الرشوة،

قال تعالى: ﴿**وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ**﴾(سورة البقرة ١٨٨)، وظاهر النهي التحريم، والراشي والمرتشي ملعون مُبْعَدٌ مطرودٌ من رحمة الله، قال ﷺ: (**لَعَنَ الله الراشي والمرتشي**)(٦٨). لكن المثل يحبب للنفس سلوك هذا السبيل، مُعلناً أثر الرشوة السحري في النفوس: "**البراطيل بتحل دكة القاضي**" والبراطيل هي الرشاوى، لها مفعول أكيد، إذ "**تكسر**" عين القاضي فيتغاضى عن الحق.. بل قد يصل الأمر إلى أن "**تحل دكة سروايله**" فتظهر عورته. واختيار القاضي في المثل لم يأت اعتباطاً، فإن وظيفة القاضي من أَجَلّ الوظائف، إذ أنه يفصل بين الحق والباطل، ويفترض في القضاة النزاهة، والعدل، لا يخافون في الحق لومة لائم. فإذا كانت الرشوة لها هذا التأثير الكبير على القاضي، فان تأثيره على غيره اكبر من باب أولى.

وليس من أخلاق الإسلام أن نُطعم الفم لتستحي العين، فنحصل على غاياتنا بهذه الطريقة الملوثة، مهما سمت هذه الأهداف والغايات.

وكون "**تستحي العين**" كهدف من أهداف إطعام الفم، أو الهدف الوحيد، فلا يعني ذلك سوى غض الطرف عن طريق الحق، وإحقاق الباطل، وقول الله تعالى: ﴿**وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ**﴾ فيه دليل على حرمة مجرد التلويح بالرشوة والإغراء بها. لِنُصانع الحكام ونقطع حقاً كان لغيرنا، وقوله تعالى: ﴿**وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ**﴾ نهي واضح من أن "**نُطعم الفم لتستحي العين**" ومع هذا قد تجد من يخرج عليك بفلسفات متأثرة بهذا المثل أو غيره، كمن قال:

إذا كنتَ في حاجةٍ مُرسلاً ... وأنتَ بها كلف مُغـــرمُ

فأرسل حكيماً ولا تُوصِـــه ... وذاك الحكيم هو الدرهمُ

(٦٨) رواه الإمام احمد وأصحاب السنن وغيرهم، وفي رواية: (**لعن الله الراشي والمرتشي في الحكم**) وفي أخرى زاد أحمد والحاكم: (**والرائش بينهما**)، انظر حديث رقم: ٥١١٤ في صحيح الجامع.

إن من آثار الرشوة وأخطارها، أن يتقدم الراشي ولو كان وضيعاً، ويتأخر الشريف، ويحظى بالمناصب التي لا يستطيع إيفاءها حقها، وبذلك يتأخر أصحاب الكفاءات وأولو الجدارة، وعندما لا يوضع الرجل في مكانه المناسب فإن سفينة المجتمع تنقلب على من فيها.

الرشوة مرض ينخر عظام المجتمع، ويقعده عن الريادة والسيادة، ولا أخالك تخالفني الرأي إن قلت لك: إن من أسباب العنت الذي نعيش، والضنك الذي نحيا، هما حرفا "**الواو**" و "**تاء التأنيث**"، فكما أن لواو الواسطة" مفعولها، كذلك لتاء التأنيث سحرها.

ورغم معاناتنا من وطأة هذه الأمراض، يخرج من بيننا من يصف الدواء "**ارشوا تشفوا**" فقد وصف لنا الداء دواء، فإن سَلَّمنا بذلك، واعتبرنا أن فيها الشفاء كما زعم، فان الله لم يجعل شفاءنا فيما حرم علينا[٦٩].

وقد يخرج لك من جعبته سهما آخر يقول: "**النبي قبل الهدية**" وهي كلمة حق أريدَ بها باطل، إن النبي ﷺ قَبِلَ الهدية لكونها هدية ليس من ورائها هدف نفعي، وهناك نبي آخر رفض الهدية عندما اشتم منها رائحة رشوة ﴿**وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ**﴾(سورة النمل).

والحُكم ليس على الاسم وإنما على المسمى، قال ﷺ: (**لَيَشْرَبَنَّ أناس من أمتي الخمر يُسَمّونها بغير اسمها**)[٧٠]، والربا حرام ولو أُطلق عليه أسماء أخرى، وكذلك الرشوة حرام ولو سميت هدية او غير ذلك، والنبي ﷺ قبل الهدية لأنها هدية، وسليمان عليه السلام رفض الهدية لأنها رشوة، والمحرمات تبقي محرمات حتى لو غير اسمها.

(٦٩) قال ﷺ: (**إن الله لم يجعل في حرام شفاء**) انظر السلسلة الصحيحة ١٦٣٣.

(٧٠) أخرجه أحمد وأبو داود وغيرهما من حديث أبي مالك الأشعري. انظر حديث رقم: ٥٤٥٣ في صحيح الجامع.

هيك مِزْبَطَة بدها هيك ختم

قال الجاحظ: مررت بِمُعَلّم يقرأ لتلاميذه (وَإِذْ قَالَ لُقْمانُ لابنه وَهُوَ يَعِظُهُ: يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً).

فقلتُ: ويحك، أدخلت سورة في سورة؟!!

فقال: نعم عافاك الله، إذا كان أَبْوَةُ الطلاب، يُدْخِلُون شهراً في شهر ولا يُعطونني أجرتي، فأنا أُدخِل سورة في سورة فلا يتعلمون شيئاً.

قد تجد أناساً بهذا المنطق، يُبَرّرون تصرفاتهم الخاطئة -مع علمهم أنها خاطئة- بهذه المبررات، فهذا عامل يسرق من مكان عمله لأن صاحب العمل يؤخر أجرته، أو يُجري عليه خصم بلا سبب وجيه، وهذا موظف يغش في وظيفته بحجة أن راتبه لا يكفي، وهذا... وهذا.. أمثلة كثيرة، ثم يقولون لك "**كُلّ مرض خبيث وإِلَه دواء نجس**".

وليست مجاراة الظلم بالظلم، والمكر السيئ بمثله، من الأخلاق التي تحمد، وانظر إلى رجل تعلم في مدرسة النبوة، واستقى أخلاقه ممن كان خُلُقُهُ القرآن:

قال أبو ذر ﷺ لغلامه: لِمَ أرسلتَ الشاة إلى عَلَف الفَرَس؟

قال الغلام: أردتُ أن أغيظك.

فقال أبو ذر: لأجمعن مع الغيظ أجراً، أنتَ حُرٌّ لوجه الله.

هكذا تعلم أبو ذر ﷺ ﴿**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾(فصلت ٣٤).

في قانون الله تعالى، لا يُمْحَى السيئُ بالسيئِ، بل السيئ بالحسن، والخبيث لا يُقابَل بالخبيث، فالحسنات يذهبن السيئات.

وقانون المجتمع الجاهلي يرى أن الخبيث لا يُجابَهُ إلا بالخبث، والمكر والغش والنجاسة، وبذلك يُبيح التَّقَلُّب والتَّلَوّن والخداع وتغيير الأقنعة حسب

الأهواء والمصالح، والرسول ﷺ يقول: (**ليس منا من غَشّ**)[٧١]، وقال ﷺ: (**المكر والخداع في النار**)[٧٢]، وعندما تَعَلَّق المجتمع بأهداب هذه الأمثال والأقوال، وسمع وأطاع، ضَلَّ وَزَلَّ وَضَاعَ، والمجتمع صورة مكبرة عن الفرد، فانظر أفراده ثم احكم، فإنّ البعرة تدل البعير، وَقِسْ على هذا التقدير، الكثير على اليسير، صفات تعيسة، وأخلاق خسيسة، تأنف الشياطين منها، وتستنكف العفاريت عنها.

فكم لهذه الأمثال من دواءٍ، وشر غير متناءٍ، بمفهومها تحاسدوا وتحاشدوا، وتدابروا وتفاخروا، وتكالبوا وتضاربوا، وتواثبوا وتجانبوا، وتناهبوا وتسالبوا، وتقابلوا وتقاتلوا، فتفرقوا وتمزقوا، وتحرقوا وتمرقوا، فماذا بقي غير ريح حمراء وزلزلة وخسف ومسخ وقذف، وآيات كَنِظامٍ قُطِعَ سِلْكُه فتتابع. ويبدوا أن المسخ والخسف قد بدأ وظهر فهو نتيجة حتمية للمنكر إذا عم وانتشر ولقد أرشد من أنشد:

هل المسخ، لا أن ترى العرف منكراً أو الخسف إلا حين تعلو الأسافلُ

۞ ۞ ۞

يا ارض اشتدي

ﻫ ١٨) ويقول ذو الطَّول والحول: ﴿ **أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا** ﴾(سورة القصص ٧٨)، ويقول الملك الجبار جلا وعلا: ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً** ﴾(سورة فصلت ١٥)، وغالباً ما يكون هذا الصنف من البشر، يمنعه الغرور والبطر، من قبول الحق، فما منع الجبابرة من قبوله إلا الكبر، ولسان حالهم:

ولو كان إدراك الهدى بمذلة رأيت الهدى أن لا أميل إلى الهدى

(٧١) أخرجه الخمسة إلا النسائي وأصله في الصحيحين، انظر حديث رقم: ٥٤٤٠ في صحيح الجامع.

(٧٢) رواه الطبراني في الكبير والصغير وابن حبان في صحيحه، انظر حديث رقم: ٦٤٠٨ في صحيح الجامع.

الكبر إثم كبير، وشر مستطير، يؤدي بصاحبه إلى السعير، فساء المنقلب وبئس المصير، قال ﷺ في الحديث القدسي: **(قال الله تعالى : العِزُّ إزاري والكبرياء ردائي، فمن نازعني في واحد منهما فقد عذبته)**(٧٣).

الكبر والإعجاب صفات مهلكات، قال ﷺ: **(ثلاث مهلكات، شُحّ مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه)**(٧٤).

كان الأولى بمن يقول: "**يا أرض اشتدي ما عليك حدا قدي**" أن يدعو الله تعالى "اللّٰهُمَّ آت نفوسنا تقواها وزكها أنت خير من زكاها" بدلاً من أن يُثنى على نفسه ويزكيها ﴿**فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى**﴾(النجم ٣٢).

المعجب بنفسه قد جهل قدر نفسه، لأنه لو عرفها حق المعرفة لأيقن أنه أذل وأقل ولا يليق به إلا التواضع والمسكنة.

المعجب بنفسه لا يعرف ربه، إذ لو كان يعرف الله لعلم أن العظمة والكبرياء لا تليق إلا بالله، ﴿ **قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ**﴾(سورة عَبَسَ).

يُروى أن مطرف بن عبد الله الشخير رأى المهلب بن صفرة وهو يتبختر في جبة خز، فقال: يا أبا عبد الله هذه مشية يبغضها الله ورسوله، فقال المهلب: أما تعرفني؟ قال: "بلى أعرفكَ، أولكَ نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وأنت بين ذَيْنَيك، تحمل العذرة" فاستفاق المهلب من غفلته واستغفر ربه وأناب.

يا ابن آدم لا يغررك عافيـــــة	عليك شاملة، فالعمر محـدود
ما انت الا كزرع عند خضرتـــه	بكل شيء من الآفات مقصود
فان سلمت من الآفات اجمعها	فأنت عند كمال الأمر محصود

ويقول الرسول ﷺ: **(بينما رجل يتبختر في برديه، قد أعجبته نفسه، خسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة)**(٧٥).

(٨٠) رواه مسلم عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً، انظر حديث رقم: ٤٣١١ في صحيح الجامع .

(٨١) رواه الطبراني في الأوسط والبزار والبيهقي، انظر حديث رقم: ٣٠٤٥ في صحيح الجامع.

خبي قرشك الأبيض ليومك الأسود

لكن لأبي العلاء المعري رأي آخر، يقول:

لا تخبئن لغد رزقاً وبعد غد ... فكل يوم يوافي رزقه معه

واذخر جميلاً لأدني القوت تدركه ... وللقيامة، تعرف ذلك أجمعه

والأيام السود إذا أتت، فإنها تكون عامة عليك وعلى غيرك، ولا يصلح أن يكون معك قرش يضيء سواد أيامك المظلمة، وغيرك يعيش على الطوى، ومهما ابيض القرش، فإنه لا يزيل سواد الأيام.

هذا المثل دعوة لِحُبّ المال وكنزه، وتقديس القرش وتكديسه وتَعِسَ عبد القرش، قال ﷺ: **(تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم)**[٧٦]، والتكديس والخبء مَدعاة إلى البخل والحرص، قال تعالى ﴿**وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ**﴾(آل عمران ١٨٠) فمسألة "**خَبّئ القرش الأبيض لليوم الأسود**" ليس فيها خير، كما قَرَّر الله تعالى وهو أصدق القائلين، وهي دعوة للبخل وعدم الإنفاق، والبخل بالمال لن يورث سعادة للمستقبل المظلم. قال أحدهم:

إذا خَزَّنَ المالَ البخيلُ فإنه ... سيورثه غماً ويعقبه وِزراً

و"**خبئ القرش الأبيض**" من طول الأمل، ولا شك أن ذلك مفسدة للعلم والعمل، والأمل شبكة الشيطان، فاجتهد أن تخلص من هذه الشبكة، ما دام لك على نفسك ملكة. وقد قيل: إذا شبعت فلا تهتم بالجوع، فكم من شبعان مات قبل أن يجوع، وإذا اكتسيت فلا تهتم للعرية، فكم من مكتس مات وثيابه جديدة مطوية.

---

(٨٢) رواه الشيخان، ولفظ مسلم عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: **(بينما رجل يمشي قد اعجبته جمته وبرداه إذ خسف به الأرض فهو يتجلجل في الأرض حتى تقوم الساعة)**.

(٨٣) رواه البخاري، انظر مشكاة المصابيح ٥١٦١.

واعلم أن هذا المثل لا خير فيه ولا نفع، إذ يحض على الجمع، والطمع، وحسبك من كلام الرب الغفور الذي بيده مقادير الأمور: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ**﴾(سورة فاطر/٥) فإن جَعَلْتَ أكبر همك ومبلغ علمك "**تحويش**" القرش، ليوم قد يأتي أو لا يأتي، فإن هَمَّكَ على مالِك قد يورثك المهالك، ويدخل الشيطان إليك من هذا الباب، ويبادرك بالوسوسة تارة، وتارة بالخطاب، فيزين لك الحياة الدنيا وشهواتها والميل إلى زينتها ولذاتها، والركون إليها، والاعتماد عليها، ويلقي إليك شبكة طول الأمل وَبُعْد العمل، وبذلك يزيغك عن الطريق الأقوم، ويبعدك عن السبيل الأسلم، ولا طاقة لك أن تتعلق بمكانين، فما جعل الله لك في جوفك من قلبين، وان تعددت المساكن يحتاج كل منها إلى ساكن، فتنقسم أفكارك، ويفسد بالك، ولا تقدر على إصلاح حالك، فإياك والحرص، فانه أفعى قاتل، وأسد صائل، يسلب إيمانك، ويمحق إسلامك، فان جاء أمر الموت من الملك الجبار، فما ينفعك درهم ولا دينار، وعند رب العرش، لا يغني عَرْشٌ ولا قِرش ولا كَرش، فالحرص يقود إلى طبعه، والأمل يسوق إلى ربعه، وقد قال سيد الأنام، عليه الصلاة والسلام، يوماً وهو بين الصحابة والأصحاب: (**لا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب**)(٧٧).

"فَخَبء القرش الأبيض" في مكان مصون، ليوم أسود مظنون، هو حمق وجنون، إذ يوصلك الحرص والشح والطمع، إلى عدم المبالاة بأي طريق تجمع.

النقود إن لم تصرف في مصارفها، فإنها جمر في نار جهنم، كما قال الله تعالى: ﴿**يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ**﴾(سورة التوبة/٣٥).

ولا يفهمن أحد أن ما نقوله هو دعوة للتواكل والكسل، ونبذ الشغل وترك العمل، فلا نعني أن تترك بيتك بلا درهم ولا دينار، فان رسول الله ﷺ يقول: (**إنك إن تترك ورثتك أغنياء خير من تدعهم عالة يتكففون الناس**)(٧٨).

(٨٤) جزء من حديث متفق عليه، انظر مشكاة المصابيح ٥٢٧٣.

(٨٥) جزء من حديث متفق عليه، واللفظ لأبي داود، انظر مشكاة المصابيح ٣٠٧١.

لكن المقصود أن لا يكون "القرش الأبيض" هو الغاية والهدف، بحيث يفقدك توازنك فلا تبالي أجمعت من حرام أو حلال، فتخرج عن طور القصد والاعتدال، فتجمع المال وتبقيه، ولا تخرج حقه لمستحقيه، قال علي بن أبي طالب ﷺ:

دع الحرص على الدنيا وفي العيش فلا تطمع
ولا تجمع من المال فلا تدري لمن تجمع

الشحاد إِلَه نُصّ الدنيا

تصور المجتمع وقد اقتنع إفراده بأن "**الشحاذة**" خير رزق، ورأوا أن ما يأتي بلا كَدٍّ وتعبٍ من فضة وذهب، خير من طلب الحلال بالمشقة والنصب. وتخيل قُعُود المجتمع عن العمل بهدف امتلاك نصف الدنيا، تخيل الأفراد وقد رضوا بالشحاذة واستجداء الواقفين والمارين، في الشوارع والميادين، ومدوا أيديهم إلى الكريم والبخيل، والمحسن والمسيء، وَعَرّضوا أنفسهم للمقت والغضب عليهم من الله وخلقه.

يصمون الآذان بأصواتهم المزعجة، وأناشيد المسألة، وينتشرون عند غروب الشمس انتشار الشياطين، ويخرجون من أماكنهم خروج البوم والخفافيش وقد أَعَدّوا لصنعتهم لباساً خاصاً لا يواري سوءة، ولا هو زينة، وَسِخ ممزق، وقذر مخرّق، وَلَحَّنوا لحرفتهم الألحان، واستجدوا بآيات القرآن، وأحاديث النبي العدنان.

وقد يمتد الأمر إلى وصولهم على أبواب المساجد زُمَراً، حتى إذا جاءوها عرضوا حاجتهم وذكروا فاقتهم، وقد يستجدون بأوراق مُوَقَّعة بأختام ظاهرة يدورون بالورقة بين الصفوف، يتخطون رقاب البشر، وقد يرمون الورق بين المصلين المعتكفين والركع السجود.

وربما تجد من هو عليم اللسان يقف أمام الناس، فيعظهم ويخطبهم، ويرغب في الآخرة، وما عند الله ويحذر من الدنيا والاشتغال بها، ثم يطلب الصدقة، لأنه "غريب" أو عابر سبيل، أو طالب علم، و"من أعان طالب علم ولو بقلم مكسور فكأنما بنى الكعبة سبع مرات"!.

ومن البدهي أن ترى الجنس اللطيف يشارك في هذه التظاهرة، فترى النساء الفاتنات والفتيات الكاعبات، المائلات المميلات يتعرضن للناس، ويتعلقن بيد هذا وثوب هذا ويخاطبن الرجال، ويلبسن ملابس الفجور، كاشفات الشعور والنحور، خاليات الوجدان والشعور، وقد تجد من يتصدق على هؤلاء، ويعين على معصية، ويضع أمواله في غير محلها، وهذه مسألة لا بد من حَلّها.

أما الذين يَحْسَبهم الجاهل أغنياء من التعفف، لا يسألون الناس إلحافاً، فلا يفطن لهم أحد، ولا يبثون شكواهم إلا لواحد أحد.

يقول الرسول ﷺ: **(لا تزال المسألة بأحدكم حتى يَلقى الله وليس في وجهه مزعة لحم)**[٧٩]، تخيل المجتمع وقد جنح أفراده لجمع نصف الدنيا، فانفرط عقدهم، وتسابقوا وتنافسوا إلى الانضمام لزفة "الشحاذين" وحينئذ لا بد من وجود قوانين و"نقابات"، لهذه المهنة التي تَدُرّ أرباحا بلا مجهود يذكر، لا يعرفون الاستعفاف ونظافة اليد، ولا يعلمون أنهم إنما يجمعون جمراً من نار جهنم، وغالباً ما يموت هؤلاء بدون أن تبدوا نعمة الله عليهم، وبدون أن ينتفعوا بما جمعوا.

فإن صارت هذه الأمثال قواعد، مستمرة العوائد، بين الرائح والغائد، وبين الصادر والوارد، أصبحت أعداد "الشحاذين" لا يحصرها حساب، ولا يحصيها ديوان ولا كتاب، ولا يعلمها إلا رب الأرباب، وتصبح المسألة عمدة الاقتصاد الوطني، وأساس كل موسر غني، ولكن غفلوا عن شيء بسيط؛ هو أنه ليس لشحاذ بأس شديد ولا رأي سديد، ورغم ماله سيبقى عبداً بين العبيد، وويل لأمة تأكل مما لا تزرع، وتلبس مما لا تصنع.

---

(٨٦) متفق عليه، انظر مشكاة المصابيح، وفي رواية أحمد: **(ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة وليس في وجهه مزعة لحم)**، انظر حديث رقم: ٥٨١٦ في صحيح الجامع.

صن النفس عن ذل السؤال ونحسه فـأحسن أحــوال الــفتى صــون

اتَمَسْكَنْ تـاتِتْمَكَّن

من أجال النظر، وأعمل الفكر، ثم تَمَعَّن في الصور؛ صورة رجل تَمَسْكَنَ ثم تَمَكَّنَ، وما بين البداية والنهاية، من مصائب ورزايا، يرى العجب العجاب، صاد العقاب، فَرَّخ الغراب، واقتنصت الذئاب بجرو الكلاب، وحشر الفهود صغار القرود ويعلم حينها معنى المسخ. المثل انطباع من عناصر أولية تَصوغ في المخيلة عالم وتصورات وأوهام، لا يلبث أن يعبر عنها صاحبها بفعل ما.

ما الذي تفعله بعد ما تتمكن؟ الجواب بدهي، لم يغب عن مثلنا الشعبي: "**إن صرت شاكوش دق، وان صرت مسمار اصبر على الدق**". قيل ذات مرة:

وليــس بعــامــر بنيان قوم إذا أخلاقهم كانت خرابــا

وقيل أيضاً:

وإذا أُصيب القوم في أخلاقهم فأقم عليهم مأتماً وعويلاً

لا بد بعد التمكين من السّحق، ليشفى صدره من أيام الغُلب والمسكنة، والله تعالى مدح المؤمنين قائلاً: ﴿**الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**﴾(سورة الحج ٤١)، هؤلاء الذين انتصروا لله، ولم ينتصروا لأنفسهم. في أيام المسكنة لا بأس من التذلل والخنوع، ولا بأس بتبرير الجُبن والتخاذل فإن "**الرجال عند حاجتها نسوان**"، فالمسكنة ليست عيباً ولا عاراً إن ضربها الإنسان على نفسه مؤقتاً حتى يتمكن، ولا ضير ما يخفيه "**الأيد اللي ما بتقدر تعضها بوسها، وادع عليها بالكسر**"، فإن لم تستطع ذلك "**اللي ما تقدر عليه حيل الله عليه**".

آمنت بالله، اكبر كل شيء، والدعاء هو العبادة، لكن هناك أبجديات تقول: أنه لا يستقيم دعاؤنا بالكسر على يد نحن نقبلها، بل المعلوم أن نأخذ بأسباب القطع ثم ندعو، أما هذا الخنوع والتواكل فلم يقل به أحد.

والعجيب أن ينقلب الوضع فجأة فتستنسر البغاث، وتستأسد الجرذان، بمجرد التمكين وتفكر في أبشع طرق الانتقام، ولا حل وسط، إما الانتقام بدافع حقد دفين متراكم مدمر وإما الخنوع والاستسلام وانتظار معجزة.

روت لنا كتب السيرة النبوية أن الرسول ﷺ بعدما مَكَّنَه الله من أهل مكة، الذين هموا بِقَتله وَسَجنه وعملوا على نفيه و تعذيب أصحابه، ورأى منهم من الإيذاء على مدى ثلاثة عشر عاماً ما لا يحتمله إنسان جمعهم فقال لهم: (**يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟**) قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: (**فإني أقول كما قال يوسف لإخوته، لا تثريب عليكم، اذهبوا فأنتم الطلقاء**)[٨٠].

إن فاقدي اليقين، ضعاف الإيمان، الذين يدعون إلى هذه الأمثال، ويزرعونها في الكبار ويرضعونها للصغار، ما علموا أنهم لن ينالوا إلا ما قدره الله لهم، ولن يكسبوا إلا ما كتبه الله لهم (**واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لا ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك**)[٨١] سواء تَمَسكَنْتَ أم لم تتمسكن، وسواء احتفظت برجولتك أم تنازلت عنها، وقد تبيع هذه الرجولة في سوق التزلف والمسكنة من أجل هدف لم يقدره الله لك، فترجع بخفي حنين، فارغ اليدين، و "**إيد من وراء وإيد من قدام**"، يد من الوراء تستر عورتك المغلظة، ويد من أمام تستر باقي هذه العورة...

يا طالب الدنيا علـى ذل بهـا ... يَعِزُّ عَلَـيَّ أن أراك ذليـلاً
لو كنت تعقل أو تشاور عاقـلاً ... كان الكثـير وقد ذَلَلـتَ قليـلاً
وإذا فُجِعت بماء وجهك لـم يفد ... أن نلت من أيدي الرجال جـزيلاً

(٨٧) ذكره ابن اسحق في المغازي، وضعفه العراقي، والألباني في تخريج فقه السيرة لمحمد الغزالي ٣٨٢.

(٨٨) - رواه أحمد والترمذي، انظر حديث رقم: ٧٩٥٧ في صحيح الجامع.

قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم نضر الله
عبداً سمع مقالتي
فحفظها ووعاها وأداها
فرب حامل فقه غير فقيه
ورب حامل فقه إلى من
هو أفقه منه
رواه أحمد

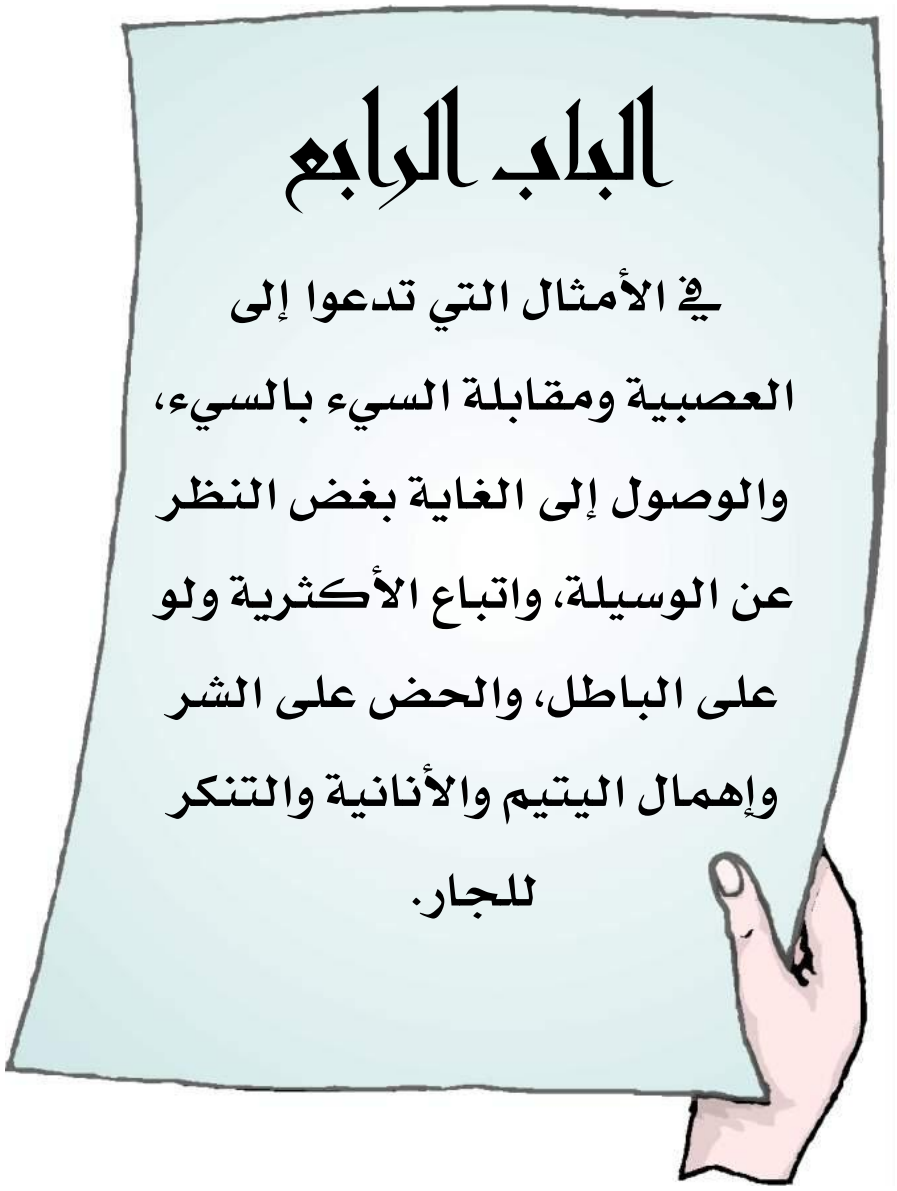

الباب الرابع

في الأمثال التي تدعوا إلى العصبية ومقابلة السيء بالسيء، والوصول إلى الغاية بغض النظر عن الوسيلة، واتباع الأكثرية ولو على الباطل، والحض على الشر وإهمال اليتيم والأنانية والتنكر للجار.

كأنه أقعى على ذنبه، وفتح فاه، وأخرج لسانه، ونطق -ليته ما نطق- بأنَّ الحل الوحيد للتخلص من اليتيم طلاق أمه.

وفي ثلاثة وعشرين موضعاً في القرآن المعظم ذُكِرَ فيها اليتيم والحض على الإحسان إليه والمحافظة عليه وعلى ماله، وتربيته التربية السليمة.

لكن المثل الناصح يزرع بذور الكراهية بين الطفل وزوج أمه، ويرى انه لا يمكن أن تستقيم علاقة الرجل مع ابن امرأته، ولهذا فليس هناك وشائج ولا روابط بين الاثنين "**الولد اللي مش من ظهرك كل ما انجن افرح له**" و" **اذا بدك تغمه وصي عليه جوز أمه**".

والطفل والمرأة من صنف الضعفاء الذين يحتاجون للرعاية، لكن مَثَلنا يقسو على هذين الضعيفين، ويزعم أن أسباب الراحة في الدنيا هو التخلص من رعاية اليتيم بطلاق أمه.

وعند رسول الله ﷺ من كفل يتيماً فجزاؤه الجنة، قال ﷺ: (**أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا**) "وأشار بالسبابة والوسطى وَفَرَّجَ بينهما"[٨٩]، وَشَتّان ما بين الجنة كجزاء مؤكد، وبين وهم اسمه "الراحة" في الدنيا، وايم الله إن شر البيوت هي التي يُساءُ فيها لليتيم.

وقد يصل الشر لمن اتخذ هذه الأمثال سلوكا له، أن يعتدي على مال اليتيم فيتصرف به كيف يشاء، فإذا ما تم له الأمر واستولى عليه طرد اليتيم وقهره وطلاق أمه، والله تعالى يقول: ﴿ **فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ** ﴾(سورة الضحى/٩)، ويقول جل شأنه ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا**﴾(سورة النساء/١٠).

والطلاق لمجرد الخلاص من مؤونة اليتيم حرام شرعاً، وأم اليتيم هي في الأصل أرملة فقدت الزوج، وقبلت بالزواج مرة أخرى لإيجاد مُعيل آخر لأيتامها،

(٨٩) أخرجه البخاري والترمذي، ورواه مسلم بلفظ: (**كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين في الجنة**)،انظر حديث رقم: ١٤٧٥ في صحيح الجامع.

فهل من الخير أن نستمتع بها ثم نطلقها ونتخلص من أيتامها، ونلفظها للشارع تكابد ألم الترمل والطلاق بلا ذنب، وتعاني من تكاليف أيتامها ومسؤولياتهم؟

إن الإسلام العظيم يعتبر السعي على هؤلاء الضعفاء ضرباً من ضروب الجهاد، ونوعاً من أنواع العبادة، قال ﷺ: (**الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، أو القائم الليل الصائم النهار**)[٨٣] فهو بعمله هذا فوق منزلة العلماء، والعباد والأغنياء والسلاطين، ذلك أن أحق الناس بالمساعدة وأحوجهم لها، المرأة التي فقدت الزوج، وحاجات المرأة كثيرة ولا سبيل إلى ما تريد إلا بمساعدة الرجل القادر على الكسب، واليتيم هو مسكين تقطعت به الأسباب، وغلقت في وجهه الأبواب، لضعفه وصغر سنه، فهو يستحق الرعاية أيضاً.

إن هذا المثل وغيره خير دليل على عمق أمراضنا الاجتماعية، وأن مجتمعاً يحمل هذه الأفكار والمفاهيم ويتعامل على ضوئها، فتواصوا بالقطيعة، وتناصحوا بالغلظة، ونبذوا الرحمة والشفقة وزرعوا العداوة والبغضاء، هذا المجتمع لن يجني غير الارتكاس والانتكاس، والتفكك ومن ثم إلى البوار والدمار.

هي الأخلاق تنبت كالنبات إذا سقيت بماء المكرماتِ

والسنة النبوية هي النبع الصافي الذي يسقي الأخلاق، بهديها كان المجتمع كالجسد الواحد والبنيان المرصوص، إذا اشتكى منه عضو تداعت سائر الأعضاء له بالحمى والسهر، أما إن سُقِيَت الأخلاق بهذه الأمثال التي أقرها المجتمع، فقد سعى في دماره وخرب داره، وَجَدَعَ أنفه بكفه، وبحث عن حتفه بظلفة...

ارحم أُخَيَّ عباد الله كلهـــم وانظر إليهم بعين اللطف والشفقة
وَقّر كبيرهم وارحم صغيرهم وراع في كل خلق وجه مـن خلقـه

(٩٠) أخرجه البخاري، وعند مسلم بلفظ: "واحسبه قال: **(وكالقائم لا يفتر وكالصائم لا يفطر)**.

بَرْمِيه في الحارة.. ولا بَعْطِيه للجارة

عندما نقرأ قول الله تعالى: ﴿ **وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ** ﴾ (سورة الحشر ٩)، وقوله: ﴿**لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾(آل عمران ٩٢)، نستهجن ونستنكر من يقول: "**جارتي في طبريا، تأكل الناعم وترمي الخشن علي**"، ونتساءل : أهذا هو الإيثار، أن تأكل الناعم الطري وتلقي بالخشن اليابس للجارة؟

لكن يبدو أن هذا المثل رغم مساوئه أرحم بكثير من مثلنا المذكور: "**برميه في الحارة ولا بعطيه للجارة**"، فالأولى رأت إلقاء الخشن للجارة على رأي المثل: "**أجره ولا هجره**"، لكن الثانية رأت أن سلة المهملات وحاوية النفايات أفضل من أن تنتفع الجارة ببواقي الطعام، مهما كان هذا الانتفاع ضئيلاً، ولماذا كل هذا؟ لأن "**الجيران نيران، والأقارب عقارب**".

أين هذه الأخلاقيات وإفرازات الجاهلية من قول الرسول ﷺ: (**ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع**)[٨٤]، وليتها شَبِعَت وَسَكَنَت وتركت جارتها بحالها، إنما نكاية بها، فإن فضل الطعام ستلقيه أمام عينيها "**في الحارة**" و"**على عنيك يا تاجر**".. ألم يقل الرسول ﷺ: (**والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن**) قيل: من يا رسول الله، قال: (**الذي لا يأمن جاره بوائقه**)[٨٥]؟ ولا شَكّ أن إلقاء الطعام "**في الحارة**" أمام الجار الجائع لهو من البوائق.

كان المنصفون يقولون: "**الجار قبل الدار**" و"**الجار للجار ولو جار**"، في حين أن مَثَلنا يرى أن "**الجيران نيران**"، قال تعالى: ﴿**وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ**﴾(سورة النساء ٣٦)، وكان الجار يهودياً يُلْقِي النفايات أمام بيت رسول الله ﷺ ، وكان رد الحبيب زيارته في مرضه، وَكُلّ ينفق مما عنده، وعند رسول الله ﷺ الخُلُق العظيم.

---

(٩١) رواه الطبراني وأبو يعلى والبيهقي ورواته ثقات، انظر حديث رقم: ٥٣٨٢ في صحيح الجامع.

(٩٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً، انظر مشكاة المصابيح ٤٩٦٢.

اخرج الترمذي في السنن: أن رجلاً كان عند عبد الله بن عباس رضي الله عنهما وغلام له يذبح شاة، فقال ابن عباس: يا غلام لا تنسى جارنا اليهودي، ثم عاد فَكَرَّرَها مراراً، فقال الرجل له: لم تقول هذا يا ابن عباس؟ فقال: والله إن رسول الله ﷺ ما زال يوصينا بالجار حتى ظننا انه سيورثه(٨٦).

وفي حديث الرسول ﷺ الذي أخرجه الشيخان: **(ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سَيُوَرِّثه)**. والرواية المذكورة للترمذي في البر والصلة.

فإذا كان الجار في الإسلام وَصَلَ إلى درجة أقرب ما تكون إلى الورثة، فكيف بنا نأكل الناعم ونرمي الخشن للجارة، لا بل أكثر من ذلك نرميه في الحارة ولا نعطيه للجارة و **(من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره)**(٨٧).

أكرِم الجار وراع حقه إن عرفان الفتى الحق كَرَم

بعد نفسك خُصّ صاحبك

هكذا استحكم في النفس حب الذات، وتأصَّلَت الأنانية المفرطة، وَلَيْتَ الأنانية تقف عند حد "الأنا" فقط، بل تتعداها إلى كراهة الآخرين، وهذا بدوره يؤدي إلى ظُلم الناس وغمطهم حقوقهم في سبيل المنفعة الخاصة.

وقد تتعدى الأمثال في هذا المجال مجرد النصح إلى إصدار أحكام شرعية وفتاوى ما انزل الله بها من سلطان، "**تعيس من بَدَّى عن نفسه**" أي تَعِسَ وارتكس، ساء ما يحكمون، إذ كيف يكون تُعساً من آثر أخاه على نفسه والله يقول: ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**﴾(سورة الحشر/ ٩)؟ كيف يوصف بالتعاسة من قَدَّمَ حاجة أخيه على حاجته والله تعالى مدح هؤلاء النفر من الناس فقال: ﴿**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا**﴾(سورة الإنسان/ ٨).

(٩٣) هذه القصة صححها الألباني في "تخريج أحاديث مشكلة الفقر" عن مُجاهد، حديث رقم ١٠١.

(٩٤) أخرجه الشيخان، ولفظ مسلم: **(من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فَلْيُحْسِن إلى جاره)**.

لا ... بل أكثر من ذلك يتطاول المثل ويتعدى إلى درجة الحكم على من آثر إخوانه على نفسه من أصحاب الجحيم "**من بَدَّى عن نفسه طاح النار**".

ليست مجرد فتوى بتحريم أو تحليل أو إباحة، بل حكم غيبي بأن النار مثوى لكل من "**بدّى عن نفسه**" وهكذا بِجَرّة قلم أو بحركة لسان حُكِمَ على كل فاضل تخلق بأخلاقٍ مدحها الله تعالى ورسوله، بأنه محروم من الجنة!!.

مالكم كيف تحكمون يا فقهاء السوء؟ إن الله أثبت لهم ثواباً عظيماً أخبرنا به الصادق المصدوق في كثير من الأحاديث، أتفترون على الله الكذب أم تقولون على الله مالا تعلمون؟ ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ** ﴾(سورة الصف/ ٧)، ماذا يقول فقهاء الفتنة في قول الله تعالى: ﴿**وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ**﴾ (سورة النحل/ ١١٦).

كيف يتماسك مجتمع شعاره "**نفسي نفسي**"؟ أو كما قال أحدهم "إذا مِتّ ظمآن فلا نزل القطر" ، مع أن الإيثار هو المادة اللاصقة بين لَبِنات المجتمع، فإذا ذهب الإيثار تفكك هذا البناء وأصبح على شفا جرف هارٍ.

لولا الإيثار ما سهرت أمّ على وليدها ورعته حتى اشتد عوده، ولما تحمل الأب المشاق لأجل تربية هذا الابن، ولولا الإيثار لانعدم الخير من الناس، والخير كما فهمناه هو كل فعل يرضي الله تعالى، فهل انقلبت المفاهيم والموازين لدى البشر ليصبح جزاء فاعل الخير النار، وجزاء كل فعل يرضي الله الخلود في جهنم، وهل وصل انعدام الحياء، وصفاقة الوجه إلى تحريف كلام الله وتغييره.

والإيثار من الحب، ورابطة الحب الصادقة الوحيدة هي الحب في الله، وقد سطّر الصحابة رضي الله عنهم قصصاً عظيمة في الإيثار والتضحية، وما وصل الإيثار قمته إلا عند السلف الصالح، فإن قلنا أن الإيثار من الإيمان فإننا لا نُجانب الصواب، (**والذي نفسي بيده، لا يؤمن عبدٌ حتى يُحِبَّ لأخيه ما يُحِبُّ لنفسه من الخير**)[٨٨].

(٩٥) رواه أحمد والنسائي، وأصله في الصحيحين، انظر حديث رقم: ٧٠٨٥ في صحيح الجامع.

ولا ينسجم الإيمان، بل لا يجتمع الإيمان مع من يقول: "**ألف عين تبكي ولا عين أمي تبكي**".

إذا كنتَ في أمرٍ فَكُنْ فيه مُحسناً ... فَعَمّا قليل أنتَ ماضٍ وتاركه

فَكَم دَحَتْ الأيام أرباب دولةٍ ... وقد ملكت أضعاف ما أنتَ مالكه

فُخّار يكَسّر بَعْضَه

حق الإنسان أن يكبر أربع تكبيرات على مجتمع اتخذ من هذه الأمثال قاعدةً لسلوكه، وقانوناً يوجه أفعاله، فهو مجتمع ميت، ماتت فيه الأخلاق، والأخلاق روح المجتمع.

لم يقف الرسول ﷺ أمام خلافات الأوس والخزرج مكتوف الأيدي ويقول: "**فخار يكسر بعضه**"، بل إن أول عمل قام به هو القضاء على ما كان بينهم من الاقتتال، والشقاق، وكذا كان أصحابه رضي الله عنهم، لهذا كان طبيعياً لمن نزع الله من قلوبهم الحمية ، حميه الجاهلة وجعلهم أمة واحدة فيما يقولون ويفعلون وما يأتون ويذرون، وأَلّف بين قلوبهم، ونزع منها العداوة والبغضاء، واثبت لهم أخوة الإيمان، يشملهم دستور واحد، وفوقهم قانون واحد، تدين لهم الدنيا، ويسعد بهم الأشقياء، ويقوى بفضلهم الضعفاء.

أقول: كان طبيعياً أن يواسي غَنِيّهم الفقير، ويرأف عالمهم بالجاهل، ويحترم صغيرهم الكبير، هكذا كانوا كما قال ﷺ: "(**المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً**) وَشَبَّكَ بيديه"[٨٩] كانوا كما وصفهم الشاعر:

إخوة بيننا في الدين تجمعنا على ... الصفات التي يقضي بها الدين

قوية وعلى الأحداث باقية ... فيها يساوي مليك الأرض مسكين

(٩٦) أخرجه الشيخان من حديث أبي موسى الأشعري مرفوعاً، انظر مشكاة المصابيح ٩٦٥٥.

كانوا يسارعون لإصلاح ذات البين لمجرد بروز بوادر خلاف، لأنهم فهموا قول الله تعالى: ﴿**وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا**﴾(سورة الحجرات/٩) فصدعوا بأمر ربهم خوفاً وطمعاً، يدفعهم إلى ذلك شوق عجيب إلى الجنة وما يقرب إليها من قول أو عمل، وإصلاح ذات البين من أعظم الإعمال وأفضلها، قال رسول الله ﷺ: (**ألا أخبركم بأفضل من درجات الصيام والصلاة والصدقة؟**) قالوا: بلى، قال: (**إصلاح ذات البين**)[٩٠].

ولضرورة هذا الأمر وحيويته في دنيا الناس ، ولسمو مكانة المصلح عند الله وعند خلقه أوتي رخصة في الكذب لأجل الإصلاح قال ﷺ: (**ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً أو يقول خيراً**)[٩١]، ومثلما يرخص بالكذب في الإصلاح، يمنع الصدق في الفساد كالنميمة وإفشاء السر.

وَرَبَطَ الشارع الحكيم التقوى بالإصلاح قال تعالى: ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ**﴾(سورة الأنفال/١).

إن الفضائل كلها لو جُمّعت ... رجعت بجملتها إلى شيئين

تعظيم ذات الله جل جلاله ... والسعي في إصلاح ذات البين

وعدم التدخل لِفَضّ الخلافات في المجتمع المسلم من المنكرات الظاهرة، ووجود فئة من المصلحين أمرٍ ضروري، إذ أنهم سبب في الإبقاء على الروابط والأواصر والعلاقات بين الناس.

لكن عندما وقر في النفوس المريضة، وحفظت الصدور الخربة هذه الأمثال التي تدعو إلى التوقف عن الإصلاح ، وتحذر من مغبة "التحجيز" بين المتخاصمين "**ما ينوب المحجز إلا تقطيع ثيابه**" وغيرها مما ينفث بها الشيطان إلى أوليائه ويفتن بها العباد والبلاد، عدت علينا الغربان، واستنسر بأرضنا البغات، فإن كانت وحدة الناس وإصلاح ذات بينهم لا تَعْنِيَنَّ كما قيل: "**سلامتك يا راسي**". فحق فعلاً أن يُكَبَّر

(٩٧) رواه أبو داود والترمذي وابن حبان وأحمد، انظر حديث رقم: ٢٥٩٥ في صحيح الجامع.

(٩٨) رواه أبو داود والترمذي وأحمد، انظر حديث رقم: ٥٣٧٩ في صحيح الجامع.

علينا تكبيرات أربع.. ثم ليس لنا بعدها أن نتساءل أمام هذا الضنك والعنت، أنهلك وفينا الصالحون؟.. فقد كثر الخبث.

يقولون الزمان به فساد وهم فسدوا وما فسد الزمان

إذا انجنوا ربعك عقلك أيش بنفعك؟

الجنون داء ماله دواء، قال الشاعر:

لكل داء دواء يستطب به إلا الحماقة أعيت من يداويها

وفي اللحظات العصيبة، لحظات الجنون الجماعي، أو الإجماع الجنوني، نكون أحوج ما نكون إلى عقولنا، في أوقات الفتن التي تجعل الحليم حيراناً، نحن بحاجة إلى تحكيم العقل لأن الجنون عاقبته وخيمة، ولا بد من وجود رجل رشيد يَرُدّ هذا القطيع الأهوج، بحكمة إلى جادة الصواب "**فالرَّبع**" المجنون لا يدري أشراً يعمل أم خيراً، ولا يدري عاقبة تصرفاته، فهل من الحكمة أن نضع عقولنا على الرف ونسير مع هذه "**الزفة المجنونة**" لا ندري أين تَقُودُنا:

إذا ما الحمق خيم في بلادٍ رأيتَ أسودها مُسِخَت قرودا

إن أحمق الحمقى هو الذي يدعو للتحامق في زمن حاجة العقل، عندما يصبح القطيع مجنوناً لا يهتدي إلى سبيله، يسير في طريق لا يدري هل تؤدي به إلى المرعى أم إلى المسلخ، في سكرتهم يعمهون، وفي غيهم يتخبطون، لا بد حينئذ من رجل عاقل يستمسك بعقله، وإلا فَقُل على الدنيا السلام.

إن تخدير العقل جريمة بشعة قد عاقب الشرع عليها بالجلد، وحرم على الإنسان أن يعتدي على عقله أو عقل غيره، فان كان هذا حكم التخدير المؤقت، فما بالك بالسُّكر الدائم؟!

يطلبون من العقل أن لا يعقل في زمن الحاجة إليه، ويرون مشروعية الجنون

واستحباب التحامق، إذا سرى هذا الداء فشمل المجتمع. ﴿**بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ**﴾ (سورة العنكبوت/٦٣) وإذا جُنَّ "**الرَّبع**" فإنهم يستحلون الحرام، ويرتكبون الكبائر ويقترفون الآثام، ويقعون في الكبائر، ويتخبطون في الحرام، ويتركون ما وجب من الأحكام، فيفعلون نكراً، وينطقون كفراً، ويجمعون وزراً، يعبثون بالأعراض والكرامات، ويهزؤون بالعبادات، يصابون في أخلاقهم، حياتهم لهو ولعب، ومتعتهم جنس وطرب، عندئذ لا يأخذك العجب، إذا رأيت طباعهم طباع قردة وخنازير، يحملون مفاهيم القرود، ويتخلقون بأخلاق الخنازير، ولا تستغرب أن ترسل عليهم حجارة من السماء أو ريح عقيم أو صيحة مهلكة أو خسف وقذف ﴿**وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**﴾(سورة فصلت/٤٦) فإن هذه الصفات ليست بعيدة عن صفات قوم لوط .

هذا المثل يدعو إلى إسكات صوت العقل والسير وراء الجماعة ولو على خطأ، حفاظاً على صحة الأبدان، ولو كان ذلك على حساب الألباب والأديان، لسان حالهم يقول:

أُنافق في الحياة كفعل غيري وكل الناس شأنهم النفاق

أو يقولون: "**الموت مع الجماعة رحمة**" فما بالك بما هو أقل من الموت؟ النفاق مثلاً، وما علموا أن الموت الجماعي ما كان في يوم رحمة، بل كان عذاباً، وإن في موت الأمم الغابرة عبرة لأولي الألباب، فقوم لوط ماتوا جماعة بالخسف، ومات قوم نوح بالفيضان، وماتت ثمود بالصيحة، وماتت عاد بالريح.. فهل كان موتهم الجماعي رحمة أم سَخَطاً وعذاباً؟ إن اتّباع الناس على الباطل والجهل والحمق والخطأ مصيبة كبرى، وإن التلون بما يريده المجتمع فادحة، فالخطأ خطأ لو تبعه كل أهل الأرض، ولا يعيب الحق قلة أتباعه، ومن قال: "**الجنة بلا ناس ما بتنداس**" فإنه زاهد في الجنة، وَمِثْلُه أو أكثر منه زهداً من اعتنق ما تعتنقه الأكثرية ولو كان كفراً: "**شو أمور دينك، قال: مثل أولاد بلدك**"، فالسير على درب الأكثرية الخاطئة، والتزام أفكارها، يودي فعلاً إلى الجحيم، فهل تفيده الأكثرية، وهل ينفعه الناس وأولاد البلد، في يوم لا بيع فيه ولا خلة، يوم يفر المرء من أخيه، وأمه، وأبيه، ومن في الأرض جميعاً ثُم يُنجيه؟

وان كان "**الرَّبع**" لا يعقل وهو قطعاً كذلك ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ** ﴾ (سورة المائدة٥٨) فهل يحسن بك يا من تتسم بالعقل أن تتبع سبيل الذين لا يعقلون، من الذين يقولون: "**حُط راسك بين الروس وقول يا قَطّاع الرُّوس**"؟ إنك إن تطعهم يضلوك، قال تعالى: ﴿**وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ**﴾(سورة الأنعام ١١٦).

ورسول الله ﷺ ينهاك أن تكون من أصحاب "**معاهم معاهم عليهم عليهم**"، فقد روي عنه ﷺ من حديث حذيفة ﷺ مرفوعاً: (**لا تكونوا إمَّعَة، تقولون إن أحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وَطّنوا أنفسكم، إن أحسن الناس تُحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا**)[٩٩].

وعاجز الرأي مضياع لفرصته حتى إذا فات أمرٌ عاتب القدرا

خيراً تعمل، شراً تَلْقَ

نصيحة جديدة من رجل خبر الدنيا، لكن ما زَكَت أحلامه، وما حَصَفَ رأيه، سَكَتَ دهراً وَنَطَقَ كُفراً.. "**خيراً تعمل شراً تَلق**" قدم المفعول على الفعل، وجاء بعد جُهد بهذا المثل، نصيحة من شأنها إجهاض كل نية لعمل الخير، وإحباط كل محاولة لفعل معروف، في قالب مَثَل جثمت على صدر المجتمع، كما جثم غيرها من الركام والأقذاء، ومع الترداد وكثرة الطرق على الأذن، أصبحت كأنها حقيقة لا مجال لنقضها، ولا سبيل لخدشها، فهي مجربة والتجربة اكبر برهان، و "**اسأل مجرب ولا تسأل طبيب**".

يتحرك في شخص ما دافع إيماني لعمل الخير، فتعترضه هذه النصيحة في ثوب مشفق آمره بتجنب عمل الخير لما يجره من ويلات.

(٩٩) أخرجه الترمذي، وذكره الألباني في ضعيف الجامع ٦٢٧١ ، وقال في المشكاة ٥١٢٩: يصح وقفه على ابن مسعود ﷺ.

وهكذا حَكَمَت محكمة الأمثال، وأصدرت قراراتها الجائرة بمنع عمل الخير ووجوب التوقف عنه فوراً، حفاظاً على السلامة من الشر، والعاقل من "**يبعد عن الشر ويغني له**"، ما دام أن عمل الخير ينتج توائم شر، فـ "**الباب اللي بيجيك منه الريح سِدَّه واسترح**" وعمل الخير إذا أَضَرّ بالمصلحة الشخصية فاجتنابه أفضل و "**لا تنام بين القبور ولا تحلم أحلام ردية**".

لكن ما يقول مناع الخير المعتدي الأثيم هذا لمن سبقه تجربه فقال:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

وماذا يقول في قول رب العالمين: ﴿**وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾(سورة الحج ٧٧)، صاحب المثل قرر أن عمل الخير يقود إلى الشر والهلاك، والله تعالى قَرَّرَ أن فعل الخير يقود للفلاح، ومن أصدق من الله حديثاً؟ كذب -والله- صاحب المثل، وصدق الله ورسوله ﷺ الذي يقول: (**من نَفَّسَ عن مؤمن كربة من كُرب الدنيا، نفس الله عنه كُربة من كُرب يوم القيامة ومن يَسَّرَ على مُعسِرٍ يَسَّرَ الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه**"[٩٣]. هذه جوازي الخير، التي لا تذهب عند الله، وكان الأولى بصاحب المثل أن يستر عيبه ويتوارى:

من كان مناعاً للخير فليس له على الحقيقة إخوان وأخدان

وأبواب الخير كثيرة، يطرق كل مسلم ما يناسبه، فالله الله بالمسارعة إلى الخيرات ﴿**وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا**﴾(سورة المزمل٢٠). لكن الناس أَلَّفُوا هذه المنكرات، وَسَكَنَت إليها نفوسهم، فصار الخير شراً، والمعروف منكراً، وما علموا أن هذه المنكرات ثقوب في سفينة المجتمع، وان هذه السفينة على وشك الغرق إن لم يبادروا إلى عمل الخير والمعروف، وإنكار المنكر، فاعمل خيراً تنج السفينة، واعمل شراً تغرق وتغرق معها.

باشروا الخير يدفع الشر عنكم إنما الخير عصمة وسلام

(١٠٠) أخرجه مُسلم وأصحاب السنن من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً، انظر حديث رقم: ٦٥٧٧ في صحيح الجامع.

أكل الرجال عَ قد أفعالها

لأنه "**عند البطون بتغيب الذهون**" فقد رأى صاحبنا الطعام، وغاب ذهنه، وَفَقَدَ اتزانه وَ"بَحْلَقَ" في الطعام بشراهة "**أكله وانحسبت عليك، كُل وبَحْلِق عينيك**" وَشَرَعَ يأكل بنهم، فما عادت أضراسه تطحن الطعام لسرعة يديه في قذف الطعام إلى فمه "**واستكبرها ولو عجرة**" وعلى المعدة المسكينة أن تحتمل هذا "**العجر**"، وما عاد يفرق -لغياب ذهنه- بين من يقدم الطعام، أكافرٌ هو أو مؤمن، ولم يعنه إن كان من يقدم الطعام يؤكل طعامه وتحل ذبيحته أم لا "**من عند صاحبك كُل، ومن عند عدوك كُل**" "**إن أجيت على قوم يبغضك، كُل وكبر لقمتك**" ونسي في غمرة هذا "التسطيل" أنه قال ذات مرة: "**نُصّ البطن بيغني عن ملاه**" ونسي بالطبع قول الرسول ﷺ: (**المؤمن يأكل في مَعِي واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء**)[٩٤]، وتغافل عن قول الله تعالى: ﴿ **وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا** ﴾(سورة الأعراف/ ٣٠).

من المعلوم أن الشَّرِه المفرِط في الأكل لا يكون صحيح الجسم، ولا صحيح البنية بل هو عرضة لأمراض قاتلة، لأنه بإفراطه في الأكل يكلف معدته مالا تطيق من الأطعمة، فيؤدي ذلك إلى عجزها عن هضم جميع ما بها من طعام، ويسبب ذلك التهاباً في القناة الهضمية، فيقع في دائها العضال، الذي ينتج عنه كثير من الأمراض التي تؤدي للحتف بعد مكابدة المشاق العظيمة التي ينشأ عنها اضمحلال الجسم وسقمه، ولذلك لا يستطيع هذا الشَّرِه أن يقوم بفعل أو عمل على وجهه الصحيح وبهذا لا يكون "**أكل الرجال على قد أفعالها**" ، لهذا كان الرسول ﷺ: (**ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه حسب ابن آدم لقيمات يُقِمْنَ صُلْبَه**)[٩٥]. قيل: البطنة تذهب الفطنة، وقيل: إن راحة الجسم في قلة الطعام، فأين هذا الكلام المضيء مع أمثالهم المظلمة؟ "**غُبّ غَبّات الجمال وقوم قُومات الرجال**" ولا اعرف كيف "تَغُبّ" الجمال، لكني أتخيل

(١٠١) رواه الشيخان من حديث جابر وابن عمر رضي الله عنهم.

(١٠٢) رواه احمد وابن ماجة والترمذي والحاكم، انظر حديث رقم: ٥٦٧٤ في صحيح الجامع.

ما في الكلمة من شراهة وشهوة للأطعمة، ولا يمكن لمن غَبّ غبات الجِمال أن يقوم قومات الرجال، لأنه بالغَبّ المفرط لا يستطيع القيام، وهو بذلك -إن مات- يكون قتيل بطنه، فإذا لم يقتل نفسه بكثرة الغَبّ، فإن المثل "**عيار الشبعان أربعين لقمة**" كاف للقضاء عليه إذا استمر على هذا "الكورس". فإذا كانت الأربعون لقمة عياراً للشبعان، فَلَيتَ شعري ما هو عيار الجائع؟ قد حدد الرسول ﷺ أن ابن آدم يكفيه لقيمات يُقِمْنَ صُلبه، فهل الحد الأدنى لهذه اللقيمات أربعون؟

ما من زينة للرجل بعد عقله إلا عفاف بطنه، وإن كثرة الطعام تميت القلب، فذرهم يأكلوا ويتمتعوا ما عرفوا من الإسلام إلا الاسم، ومن القرآن إلا سورة المائدة، ومن الآيات إلا ﴿**آتِنَا غَدَاءَنَا**﴾ فكانوا أسرى جوعهم وصرعى شبعهم.

أهدى المقوقس للرسول ﷺ فرساً وجاريةً وطبيباً، فَقَبِلَ الفرس والجارية، وَرَدّ الطبيب قائلاً: (**لا حاجة لنا به، نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وان أكلنا لا نشبع**)[٩٦].

وروى عن عمر بن الخطاب قوله: "إياكم والبطنة فإنها مكسلة عن الصلاة، مؤذية للجسم، وإن امرءاً لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه". وقيل لسمرة بن جندب: ابنك بات الليلة مُتخماً، فقال: أما لو مات لم أُصلِّ عليه.

أما نحن بأمثالنا، فقد سَمّنا دُنيانا وأهزلنا ديننا، وأخلقنا أخلاقنا، نأكل بِنَهَمٍ ونتجشأ من البشم، نقول للمعدة هل امتلأت.. فتقول هل من مزيد.

إن ابن عابدين يرى في حاشيته أن للطعام أحكاماً، منها الفرض وهو مقدار ما يدفع الهلاك ومندوب وهو مقدار ما يتمكن من العبادات، ومباح إلى حد الشبع، وحرام وهو ما فوق الشبع لأنه إمراض للنفس.

لا تَـخدعن بأطماع تزخرفهـا ... لك الـمُنى بحديث الأكل والشبع
فلو كشفت عن الموتى بأجمعهم ... وجدت هلكهم في الشَّره والطمــع

(١٠٣) وعن عائشة رضي الله عنها قالت: "ما شبع آل محمد من خبز الشعير يومين متتابعين حتى مات رسول الله ﷺ" أخرجه الشيخان.

بُوس الكلب من ثمّه تا توخذ غرضك منه

أجمع أولو الألباب على أن فَمُ الكلب وَلُعابه نَجِسَه، وأن اختلاط سؤر الكلب بأي طاهر يُنَجِّسه، وتقبيل الكلب في الفم، والتقاء الشفاه بالشفاه، واختلاط اللعاب باللعاب لا شك ينجس اللسان، فكيف بإنسان لسانه نجس؟ و"المرء بأصغريه قلبه ولسانه"، فما الذي يحدث إذا كان نصف المرء نجس؟، قال الشاعر:

لسان الفتى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فُؤاده فَلَم يَبْقَ إلا صورة اللحم والدم

واللسان لا ينطق إلا بما يُرِيدُه الفؤاد، فطهارته من طهارته، ونجاسته من نجاسته:

رأيتُ لسان المرء رائد علمه وعنوانه، فانظر بماذا تعنون

فكيف إذا كان العنوان ملوثاً بالنجاسة؟ فإن ارتكاب النجاسات والموبقات من أجل الحصول على غرض دنيوي، وأقول دنيوي لأنه لا غرض شرعي للناس في لعاب الكلب، لا ينبئُ بخيرٍ، ولا يدل على إيمان، ولا يخبر عن إسلام، وإن أحمق الناس من باع دينه بدنياه، أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى، يداهنون ويهدرون ماء الوجه من أجل عَرَضٍ أو غَرَضٍ، "**اللي يعوز الكلب يقول له يا سيدي**" لأن "**شَعرة من جلد الخنزير بركة**".

أما والله إنا نُهينا أن نقول للكلب "**يا سيدي**" ولئن كان الكلب سيداً فقد أسخطكم ربكم، والحاجة النجسة ليس فيها خير ولو كانت دواء، والحاجة النجسة لا قيمة لها.

وإذا كان في نجاسة وطهارة جلد الكلب وشعره خلاف، فإن هناك اتفاقاً على نجاسة شعر الخنزير، فعن جابر رضي أنه سمع رسول الله ﷺ يوم الفتح يقول: (**إن الله ورسوله حَرَّمَ بيع الخمر والميتة والخنزير**)[٩٧] وهذا وحده دليل كافٍ على حرمة الانتفاع بأي جزء من الخنزير. فأين البركة في حرام ممحوق مركوم؟

(١٠٤) رواه الشيخان وأصحاب السنن، وزاد مسلم (والأصنام)، انظر مشكاة المصابيح ٢٧٦٦.

إن الذين يُقَبّلُون الكلب مقابل كسب زائل، ويرون أن البركة في الخنزير لا يحترمون أنفسهم، ولا يحترمهم الناس، ولا يقيم الله لهم يوم القيامة وزناً ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ**﴾(سورة البقرة٨٦) فبئس ما اشتروا به أنفسهم، وبئست من تجارة خاسرة.

أما ارتكاب الفواحش والرجس من أجل هدف مهما سما -وهذا بعيد احتماله- فإن الغاية لا تبرر الوسيلة، وما يؤدي إلى الحرام حرام، ولن يفلح قوم زرع في عقولهم الحرص على هذه الدنيا التي وصفها الرسول ﷺ بالجيفة ولن ينهض مجتمع انغمس في الإثم، وأطلق لغرائز أفراده العنان، ولن ترقى أُمة ترى أن البركة أو الخير في جلد الخنزير، أو فم الكلب.

إن الله تعالى خلق ابن ادم وَكَرَّمَه، فإن كان هؤلاء قد استغنوا عما كرمهم الله به واستحبوا العمى على الهدى، واشتروا الصغار والضّعة والهوان بالعزة والكرامة فتلك الغفلة الحقيقية، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**﴾(سورة الإسراء٧٠) وهناك أناس يرفضون شهادة الكرامة هذه ليأخذوا بدلاً منها شهادة ذُلّ من إبليس.

ومن يذل نفسه بالتمسح بالوضيع النجس بعيد عن صف المؤمنين ﴿**وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ**﴾(سورة المنافقون٨) ومن يُقَبِّل فَم الكلب ويمثل أمامه بِذِلَّة، ويقول له "يا سيدي" من أجل متاع، لا يعرف الله الرزاق الذي يتوكل عليه المؤمنين، ولا يؤمن بحديث الرسول ﷺ: (**لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً**)(٩٨).

ليس هناك مبرر لتقبيل فَم الكلب، ومن يرى ذلك فإنه يفتري على الله ويحل ما حرمه الله، ذلك أن تبرير الوسائل من أجل الغايات حسب الهوى والرأي والمواقف الزمانية والمكانية حرام.

تقبلون يد الطاغي مفاخـــرة ... كأنكم قـد بلغتم ذروة الشـــرفِ
إن الذليل يعد الصفح مكرمة ... والضرب بالنعل تربيتاً على الكتفِ

(١٠٥) أخرجه الترمذي وابن ماجة وأحمد، انظر حديث رقم: ٥٢٥٤ في صحيح الجامع.

لَقّح الباطل للباطل تا يظهر الحق

هل المقصود تزويج الباطل للباطل، وكيف يمكن في الحال هذه أن يظهر الحق؟ أم القصد ضرب الباطل بالباطل.. وهل تنجلي هذه المعركة عن حق أيضاً؟

وما هو الحق المقصود، هل هو الحق المعروف والذي نقيضه الضلال، أم هو حق الشخص نفسه وحظه من الدنيا؟ على كلا المعنيين المثل خاطئ.

فإذا أردتَ أن تواجه الباطل وَسُبُله غير الشرعية، بسبل غير شرعية مثله، فأنتَ آثم، وإذا واجهك الباطل بالكذب والغش واللصوصية فليس من الحق أن تواجِهه بهذه الأسلحة، فمعالجة الخطأ بخطأ لا تنتج حقاً، ولا يظهر الحق مطلقاً إذا عاملنا المرابي بالربا والزاني بالزنا.. ولا ادري أي حق مزعوم يولد بين الربا والزنا.

هناك وسائل شرعية نظيفة بعيدة عن الإثم والرجس يمكن أن يواجه بها الباطل، وهي كفيلة بأن تدمغه ﴿**بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ**﴾(سورة الأنبياء١٨). وإذا جاء الحق زهق الباطل.. والباطل نفسه قصير، إنه كان زهوقاً.

أما إن لم يكن القصد تحدي الباطل بالباطل، وإنما التزويج وعقد المصالحات والزفات والأفراح والليالي الملاح، فإن مداهنة الباطل وتملقه بالباطل، ومغازلته بالباطل وزواجه بالباطل، لا يمكن أن ينتج حقاً شرعياً، بل باطلاً سفاحاً.

أما إن كان المقصود هو حق الشخص نفسه، ويكون المثل في مقام النصيحة، والنصيحة كانت تساوي جملاً، والمعنى: عليك أن تصل إلى حقك ولو بالغش والتزوير، ولو بإتباع كل سبل الشيطنة، فالمهم هو الوصول إلى الحق، حق الإنسان الضائع، فإن الله تعالى يقول: ﴿**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾(سورة فصلت ٣٤)، ومقابلة الباطل بالباطل والمكر بالمكر ليست من قبيل الدفع بالتي هي أحسن، وليس من الأخلاق مواجهة الخطأ بالخطأ أفدح منه.

فمواجهة الباطل بالباطل تؤدي إلى تفسخ المجتمع، وزرع الريبة والشك بين

صفوفه والدفع بالتي هي أحسن يقلب العداوة إلى صداقة حميمة، ويُحَوّل البغضاء إلى محبة، والكراهية إلى مودة، وما كنت ستأخذه بالحرام تأخذه بالحلال وعن طيب خاطر، أو يعوضك الله عنه خيراً إذا كانت نيتك متوجهة الى رضا الله تعالى واجتناب الحرام، قال ﷺ: **(من ترك شيئاً في الله عوضه الله خيراً منه)**[٩٩]، ولا يعنيه هذا بحال الاستكانة للباطل والاستسلام له، وهذا واضح، وذلك أن تلقيح الباطل بالباطل من سوء الخلق، وأن أسوأ صفة يمكن أن يتخلق بها الإنسان فترديه في الدنيا والآخرة هي صفة سوء الخلق.

الحق سهم لا ترشه بباطل ما كان سهم المبطلين سديداً

۞ ۞ ۞

أكبر منك بيوم أعلم منك بسَنَة

ترى هل هذا المثل صحيح؟ وهل يقاس العلم بالعمر؟

كان ابن عباس رضي الله عنهما يقرئ رجالاً من المهاجرين منهم عبد الرحمن بن عوف، علق ابن الجوزي على هذه الرواية فقال: فيه تنبيه على أخذ العلم من أهله وإن صغرت أسنانهم.

وكان حكيم بن حزام يقرأ على معاذ بن جبل، فقيل له: تقرأ على هذا الغلام الخزرجي؟ فقال: إنما أهلَكَنَا التكبر.

وقيل أن سيبويه صاحب التصانيف في العربية، وهو من أشهر أعلام اللغة، مات وعمره ست وثلاثون سنة.

وعندما ولي يحيى بن اكثم القضاء وعمره عشرون سنة، استصغر أهل البصرة سِنَّهُ فسألوه: كم عمر القاضي؟

فأجاب: عمر معاذ بن جبل حينما أرسله الرسول ﷺ قاضياً إلى اليمن.

(١٠٦) رواه أحمد بسند صحيح، وصححه الألباني في تحقيقه لكتاب "حجاب المرأة ولباسها في الصلاة" ص٤٧.

إن المقياس هو للتقوى والعلم ﴿**يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ**﴾(سورة المجادلة ١١) وكان وكيع يقول: لا يكون الرجل عالماً حتى يسمع ممن هو أَسَنّ منه، ومن هو مثله، ومن هو دونه في السن. حتى في إقامة الصلاة، يؤم القوم أقرؤهم وأفقههم وليس أكبرهم سِنَّاً، قال عمر بن الخطاب ﷺ: "إن العلم ليس عن حداثة السن ولا قدمه، ولكن الله يضعه حيث يشاء"، وقد يحيط الصغير بما لم يحط به الكبير، فالهدهد رغم صغره قال لسليمان عليه السلام: ﴿**أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ**﴾(سورة النمل ٢٢).

وبعد ما أوردناه نقول: إن العلم لا يؤخذ بطول العمر، بل بطول التحصيل، إن كبير السن له احترامه وتقديره، ولا شك أن لديه خبرة وتجربة، واحترامه أدب إسلامي بل أمر نبوي، فقد قال ﷺ: (**ليس منا من لم يُجِلّ كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لِعالِمِنا حَقَّهُ**)(١٠٧)، لكن لا يعني ذلك أن علمه مرتبط بعمره، وما كان العمر مقياساً للأفضلية، قال تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ وليس الذين يَكْبُرُون والذين لا يَكْبُرُون.

قرأنا في كتب الأقدمين أن احد الصبيان قال لأبي العلاء المعري الشاعر المعروف: أو لستَ القائل:

وإني وإن كنت الأخير زمانه لآتٍ بما لم تستطعه الأوائلُ

قال: بلى. فقال الصبي: فإن الأوائل أتوا بحروف الهجاء ثمانية وعشرين حرفاً، كل حرف لا بد للكلام منه، فهل يمكنك أن تأتي بحرف جديد؟! فأُفحم أبو العلاء ولم ينطق، وأخبرتنا كتب الأقدمين أن إياس ابن معاوية كان غلاماً صغيراً عندما أفحم القضاة في مجلس الخليفة.

دخل على عمر بن عبد العزيز في مبدأ ولايته وفود المهنئين، فتقدم وفد الحجازيين بين يديه، فقام بينهم غلام لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره، وأراد أن يتكلم عن قومه، فقال له عمر رحمه الله: اجلس أنت، وليقم من هو أسن منك!

(١٠٧) رواه أحمد والحاكم من حديث عبادة بن الصامت مرفوعاً، انظر حديث رقم: ٥٤٤٣ في صحيح الجامع.

فقال الغلام: أيد الله الأمير، لو أن الأمر بالسن لكان في الأمة من هو أحق منك بمجلسك هذا.

فمسألة "**أكبر منك بيوم أعلم منك بسنة**" خاطئة في عمومها، يبطلها الواقع وتنفي صحتها الوقائع.

فَرُبّ صغير قوم علـمـــوه سما وحما المسومة العرابـــا
فكان لقومه نفعـــا وفخـــرا يأتي ويحدث العجب العجابا
فـلا ترهق شباب الحي يأســـا فإن اليأس يخـترم الشـــبابـــا

بعد ما شاب، وَدّوه الكُتّاب

تشنيع على من طلب العلم كبيراً، لكن الآيات والأحاديث التي تأمر بالعلم والتعلم ليست خاصة بالأحداث، وإن كان صغار السن أكثر تفرغاً لضآلة مسؤولياتهم وقلة انشغالهم، لكن لا نغيب على متعلم طلب العلم كبيراً، وليس من العدل أن نساير المثل الظالم فنمنع رجلاً أو امرأة طَلَبا العلم في كبرهما ليصلحا به دينهما أو دنياهما، ويعبدا الله على علم.

قال ابن مسعود ﷺ: "إن أحدكم لم يولد عالماً وإنما العلم بالتعلم".

وعن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: (**من سَلَكَ طريقاً يبتغي به علماً سَهَّلَ الله به طريقاً إلى الجنة**)[١٠١] وفي الصحيحين عن معاوية ﷺ مرفوعاً: (**من يُرِد الله به خيراً يُفَقّهه في الدين**)[١٠٢]، و(**إنما العلم بالتعلم**)[١٠٣].

فهل هذا خـاص بالصغار؟ وهـل نمنع الخير عـن رجل قرر أن يتعلم بعد أن

(١٠٨) رواه مسلم وأصحاب السنن من حديث أبي هريرة ﷺ، انظر حديث رقم: ٦٥٧٧ في صحيح الجامع.

(١٠٩) متفق عليه، انظر مشكاة المصابيح ٢٠٠.

(١١٠) عزاه السيوطي للدارقطني في الأفراد عن أبي هريرة ﷺ، وللخطابي عن أبي الدرداء ﷺ، انظر حديث رقم: ٢٣٢٨ في صحيح الجامع.

وخط الشيب رأسه؟ فما تعلم الصحابة إلا وهم كبار، وما استحيوا أن يسألوا عما لا يعلمونه، وقد علموا (**أنما شفاء العي السؤال**)(١٠٤).

أي شريعة وأي قانون يمنع العلم عن كبار السن؟ لن تجد ذلك إلا في شريعة من ركنوا إلى الجهل واستحبوه على العلم، الذين إذا قال لهم الناس: "**إن العلم بحر، قالوا**: و"**التياسة**" **محيط**"، ففضلوا السباحة في المحيطات و(**إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يترك عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالاً**)(١٠٥).

وهكذا تجدهم يضعون العراقيل، ويستنجدون بكل ما هو محبط، ويخترعون النكات اللاذعة، والسخرية المرة، فضلاً عن الهمز واللمز، لمن قصد التعلم كبيراً، وأمثالهم في ذلك كثيرة وفيرة أُنَزِّه سمع القارئ عنها.

العلم نور، وما أعز الله بجهل قط، ولا أذل بعلم قط، العلم طلبه عبادة ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه صدقة، وبذله قربه، وهو معالم الحلال والحرام، والصواب والخطأ، ومنار سبيل الجنة، والأنيس في الوحشة والصاحب في الوحدة، والمحدث في الخلوة، يرفع الله به الأقوام، فلماذا نَحرم كبير السن من هذا الخير؟ وليس له جريرة ولا ذنب، إلا أن الله لم يقدر له التعلم في صغره؟

إن هذه الأمثال لكثرة التكرار أوحت للناس وأدخلت في روعهم ما مفاده أن دماغ الإنسان تخف وتجف مع الكبر، فالتعلم في الكبر ضرب من العبث، وتناست هذه الأمثال، أن الله تعالى كان يبعث الرسول بعد الأربعين، في سن الكهولة، وبعد أن يظهر الشيب في رأسه، فالقانون الإلهي إنه بعد ما شاب أصبح نبياً، وقانون المنغمسين في محيط الجهالة: بعد ما شاب يحرم عليه التعلم.

قال تعالى: ﴿**حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ**﴾(سورة الأحقاف/١٥) قال المفسرون: "أي أنه بلغ كمال قوته العقلية والجسيمة"، والناس تسخر من الذي ذهب إلى الكُتّاب بعدما شاب،

(١١١) رواه أبو داود وغيره عن جابر ﷺ مرفوعاً. انظر حديث رقم: ٤٣٦٢ في صحيح الجامع.

(١١٢) متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ، انظر مشكاة المصابيح ٢٠٠.

ويرون أن مكانه ملجأ العجزة، والقرآن يبين أن تمام القوة العقلية تكون بعد الأربعين، وقَلَّما تجد من وصل إلى هذه السن دون شيب.

ذو الجهل لا ينفك مضطرباً لأقل شيء يفقد الصبرا
كل المصائب عنده كبرت الا مصيبة جهله الكبرى

أنا وأخوي عَ ابن عمي وأنا وابن عمي عَ الغريب

وقف رسول الله ﷺ وَوَقَفَت تبعاً له جموع الحجيج، وبدا عليه ﷺ إنما وقف انتظاراً لأحدهم، وتساءل الصحابة فيما بينهم عن تلك الشخصية المهمة البارزة التي وقف الرسول ﷺ لانتظارها، وأوقف هذه الحشود... وأخيراً ظهرت هذه الشخصية، وانفرجت أسارير الرسول ﷺ، وبان ذلك على وجهه، ثم تحرك الركب.. فمن هذا الشخصية؟ لم يكن من كبار الصحابة، ولم يكن من شيوخ الأنصار والمهاجرين، ولم يكن من السابقين إلى الإسلام ولم يكن من أغنياء المدينة، ولم يكن له جاه ولا حسب ولا نسب إلا الإسلام، لسان حاله يقول:

أبي الإسلامُ لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

كان غلاماً بلغ الحلم حديثاً، أجعد الشعر، أفطس الأنف، أسود الوجه، نحيفاً، بوجهه آثار الجدري، ولم يكن قرشياً، ولم يكن من أهل القريتين، أمه أم أيمن سوداء البشرة حبشية إفريقية، وأبوه زيد بن حارثة ﷺ، وهو الحب ابن الحب أسامة بن زيد ﷺ.

كان رسول الله يقول: (**سلمان من آل البيت**)[١٠٦]، وذلك أن رابطة العقيدة هي التي جمعت بين محمد العربي، وسلمان الفارسي، وصهيب الرومي، وبلال الحبشي، ولم تنجح رابطة العمومة في الجمع بين محمد ﷺ وعمه أبي لهب.

(١١٣) ذكره الشيخ الألباني في السلسلة الضعيفة برقم ٣٧٠٤.

إن مفهوم العصبية القبلية، والرابطة الجاهلية، مفهوم مُنتن، قال ﷺ: (**دعوها فإنها مُنتة**)[١٠٧] ولو تعاملنا على أساسها لبقينا في دائرة مغلقة، ولما أثرى تاريخنا أمثال أبي حنيفة الفارسي، والسمرقندي والسرخسي من أعلام الفقه، والبخاري ومسلم وأصحاب السنن الأربعة في الحديث، والطبري في التفسير والزمخشري وسيبويه في اللغة والنحو، والخوارزمي في الفلك والرياضيات، وابن خلكان في الرجال والرازي وابن سينا في الطب، لم ينحدروا من أصل عربي ومع هذا تبوأوا أعلى الدرجات في ظل الإسلام الذي ساوى بين عباد الله من المؤمنين فـ (**كلكم بنو آدم وآدم خُلِقَ من تراب**)[١٠٨].

اقتتل غلامان، غلام من المهاجرين غلام من الأنصار فنادى المهاجر: يا للمهاجرين، ونادى الأنصاري: يا للأنصار، فخرج رسول الله ﷺ فقال: (**ما هذا؟ دعوى أهل الجاهلية**) فقالوا: لا يا رسول الله، إلا أن غلامين اقتتلا فَكَسَعَ "ضرب دبره بيده" احدهما الآخر، فقال: (**لا بأس ولينصر الرجل أخاه ظالماً أو مظلوماً، إن كان ظالماً فلينهَهُ فإن له نصر، وإن كان مظلوماً فلينصره**)[١٠٩].

وكلنا يعرف الحوار الذي جرى بين مصعب بن عمير ﷺ وأخيه أبي عزيز عندما أسره المسلمون، إذ قال مصعب للمسلم الذي أسره أخاه (واسمه أبو اليُسر): اشدد عليه فإن له أما موسرة، فقال أخوه: أهذه وصية الأخ لأخيه يا مصعب، فقال مصعب: إنه أخي دونك.

وروي عن الرسول ﷺ حديث: (**ليس منا من دعا إلى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية**)[١١٠].

---

(١١٤) رواه مسلم والترمذي من حديث جابر بن عبد الله ﷺ مرفوعاً، انظر السلسلة الصحيحة ٣١٥٥.

(١١٥) رواه البزار والترمذي وأبو داود من حديث أبي هريرة مرفوعاً، انظر حديث رقم: ١٧٨٧ في صحيح الجامع.

(١١٦) رواه مسلم عن جابر ﷺ برقم ٦٥٨٢، وفي رواية في الصحيحين: (**انصر اخاك ظالماً او مظلوماً**) قال رجل: يا رسول الله انصره إن كان مظلوماً، أفرأيت إن كان ظالماً كيف أنصره؟ قال: (**تحجزه او تمنعه عن الظلم فإن ذلك نصره**).

(١١٧) رواه أبو داود، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم: ٤٩٣٥ ، وفي رواية عند مسلم وغيره: (**من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية، ومن قاتل تحت راية عمية يغضب لعصبية او يدعو إلى عصبية او ينصر عصبية فَقُتِلَ فَقتلته جاهلية، ومن خرج على أمتي يضرب بَرَّها وفاجرها ولا يتحاشا من مؤمنها ولا يفي لذي عهدة عهده فليس مني ولست منه**).

ونستذكر موقف أبي بكر ﷺ من ابنه وكان مشركاً، وموقف عبد الله بن عبد الله بن أبي سلول ﷺ من أبيه يوم قال: "لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منا الأذل".

فأين مفاهيم الإسلام التي تَرَبّى عليها الصحابة من هذا المثل الداعي إلى التعصب للقرابة والدم، الفاتح للشيطان أكبر مدخل للتحريش بين المؤمنين والإغراء بالعداوة.

إن كل مشروع وحدة لم يقم على قاعدة الحب في الله والإيمان به، كان مصيره إلى الفشل، فلا القرابة والدم نفع، ولا المال شفع ﴿**لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾(سورة الأنفال/ ٦٣).

لعمرك ما الإنسان إلا بدينـــه فلا تترك التقوى اتكالا على النسب
فقد رفع الإسلام سلمان فارسٍ وقد وضع الشـرك الشريـف أبا لهب

الخاتمة

المَثَل ما خلاّ حَدا يتوه

رَغِبْتُ أن تكون خاتمة هذا البحث، مثلاً ليكون منسجماً مع المقدمة، والموضوع ككُلّ، فنقول وبالله التوفيق:

المثل من الكلام، والكلام نُطق، والنطق نعمة من نعم الله، وقد تكون هذه النعمة نافعة للإنسان، وقد تكون وبالاً عليه وسبباً في هلاكه.

والمطلوب شرعاً أن يكون الكلام صدقاً وحقاً، فيه النفع والخير، قال ﷺ: **(من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت)**[١١١] و **(المسلم من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده)**[١١٢].

وبعد هذه الجولة التي طفنا فيها بين بعض الأمثال الشعبية باعتبارها نوعاً من القول، وضرباً من الكلام، نتساءل هل سار المثل حسب المفاهيم الشرعية مستنيراً بالهدي النبوي؟ هل دعا إلى ما دعا إليه الإسلام من مكارم الأخلاق؟ هل كان مصدراً من مصادر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ وهل صحيح أن "**المثل ما خلد حدا يتوه**"؟

مما استعرضنا تبين لنا أن المثل حَضَّ على الانتقام وشجع على سوء الظن والشك، وأيّدَ التشاحن والتدابر والتباغض والتحاسد والتجسس، ودعا إلى الغيبة والنميمة، وتتبع عورات البشر، ودعا إلى استحباب الرياء والنفاق والكذب من اجل غرض تافه ومتاع زائل.

أمرَ وَحَّض على الهمز واللمز، وفُحش القول وقبح العمل، وشجع على السباب

(١١٨) أخرجه البخاري، وعند مسلم: (أو ليسكت)، انظر مشكاة المصابيح ٤٨٤٣.

(١١٩) أخرجه البخاري ومسلم، انظر مشكاة المصابيح ٦.

والفجور والفسق والشتم، وكسر حاجز الحياء والتعدي على المشتبهات، ودعا إلى الكبر وبذاءة اللسان واتباع القبيح وترك الحسن، وعدم احترام مشاعر الناس، والسخرية من عاداتهم وتقاليدهم التي انبثقت عن الشريعة الغراء.

لم يتورع المثل وقد هاجم الحياء ودعا إلى نبذه - والحياء من الإيمان - عن ذكر كل عيب خلقي بغرض التحقير والسخرية والكيد.

دعا إلى الأنانية وحُبّ الذات ولو على حساب الآخرين، قَدّسَ الحياة الدنيا وجعلها أكبر همه ومبلغ عمله، فكانت الأمثال تدور في هذا الفلك.

بل أكثر من ذلك دعا إلى هدم العبادات والتقليل من شأن الثواب والعقاب، وتطاوَلَ على السُّنّة النبوية حتى وصل به الفجور إلى التطاول على الذات الإلهية، والدعوة إلى الإلحاد.

دعا إلى هدم النظام الأسري وضَرَبَ الإحكام الشرعية عرض الحائط، وما ترك شاردة ولا وارده نهى عنها الشرع فأمر بها، أو أمر بها الشرع فنهى عنها، حتى يخيل للمُتَمَعّن في أمثالنا أنها مقصودة، وكأن واضعيها كانوا يبحثون عن كل ما هو شرعي لينقضوه.

إن المثل كنوع من الكلام- لم يؤد وظيفته الأصلية التي خلق الله اللسان من أجلها، بل استغلها أسوا استغلال، ولم يتق الله، وما كان قوله سديداً ولا رشيداً، لهذا كان أحرى بنا ونحن مأمورون بحفظ اللسان من أن يكبنا في النار، أن نختار من الألفاظ والأقوال أطايبها، ونصلح ألستنا، ونتقي الله في أقوالنا وأفعالنا، فرب كلمة لا يلقي الإنسان لها بالاً، تقال في غضب الله، فيهوي بها في النار سبعين خريفاً.

إن نعمة القول التي ميزنا الله بها عن البهائم أحرى أن تحفظ وتوجه لما يرضي الله، لا أن تكون حجة علينا ومدعاة لدخولنا النار ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا**﴾(سورة الأحزاب/ ٧٠). ولا يكون القول سديداً فيه خير ومعروف إلا بالإيمان، فالإيمان ينعكس على السلوك، ولأن أمثالنا تدور كلها في فلك الأنانية وسوء الأخلاق والفهم الخاطئ لغاية هذه الحياة الدنيا، فإن ذلك دليل على الجاهلية التي نعيش، وكل إناء بما فيه ينضح، وكلٌّ ينفق مما عنده، وما يكون في القلب يخرج على

اللسان، وإن ألفاظنا اليوم أقبح من آثار الجدري على الوجه، وقبل أن ندعو إلى تهذيب أقوالنا وضبط ألسنتنا، ينبغي أن ندعو إلى الرجوع إلى واحة الإيمان الظليلة أولاً، فإذا ما عدنا إلى إسلامنا، نستقي منه مفاهيمنا، وأخلاقنا، فإن اللسان سينضبط تباعاً، "لو تستقيموا لاستقامت ألسنتكم" ولنعلم قوله ﷺ: **(إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها فيزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب)**[١١٣]. فحصاد اللسان خطير ﴿**وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ**﴾(سورة النور/ ١٥). عافانا الله وإياكم وأعاننا على كلمة الحق وألهمنا النطق بالصدق، والحمد لله أولاً وآخراً.

وإذا جنايات الجـوارح عُددت فأشدها يـجني عليك لسان

حفظ اللسان عن القبيح أمـان يـزكو بـه الإسلام والإيمان

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

(١٢٠) رواه الشيخان وغيرهم، انظر حديث رقم: ١٦١٨ في صحيح الجامع.